عباس محمود

العقاد

- جحا الضاحك المضحك

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

الكلمة والضحكة

الكلمة أكبر الفتوح الانسانية في عالم الكشف والاختراع ، لو لم يخترعها الانسان لوجب أن يخترع ما يساويها وينوب عنها ، لانه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تفاهم على شيء من الأشياء بغير الكلمة أو ما يدل دلالتها ..

أنقول على شيء من الأشياء وكفى ؟

كلا .. بل نعمم القول على الأشياء وما ليس بشيء من الأشياء ، ونضرب المثل بيوم الاربعاء أو يوم الخميس أو يوم من الأيام في الشهر الأول من السنة الحاضرة.

ما هو ذلك اليوم ؟ وما هو ذلك الشهر ؟ وما هي تلك السنة ؟

يصعب علينا أن نسميها شيئاً من الأشياء يتأتى لنا أن نشير اليه كما نشير الى كل شيء نراه أو نحصره :

مسافة من الفلك تدور فيها الأرض حول نفسها ، وليست هي بالمسافة الثابتة التي تعود الى مكانها في مجرى المنظومة الشمسية من أجواز الفضاء ! ..

شيء أو لا شيء ..

ولكنه على ذلك اسم لابد منه لمن يذكر التاريخ ، ولمن يعمل في ساعته الحاضرة ، ولمن ينظر الى المستقبل ويقرر له المواعيد والمواقيت.

والاسم في اللغة هو الذي استطاع أن يصطاد للعقل هذه المسافة المجهولة من الفضاء الأبدي ويعطيها الدلالة التي لا غنى عنها.

ولكنها ليست بالدلالة الوحيدة التي لا غنى عنها .

كل ماتدل عليه اللغة لا غنى عنه للانسان ، ومنه هـذه المحسوسات التي نلمسها ونراها بالعين ، كالطريق والمركبة والكرسي والاناء . فاننا نجرب الاستغناء عن اللغة يوماً ونحاول أن نتفاهم عليها وهي غائبة عنها لا نستطيع أن نشير اليها.

لا سبيل ! ..

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الاسـماء ، والله علم آدم الأسماء كلها ، لأنها هي العلم الانساني من مبدئه الى منتهاه .

الا انه علم الانسان.

وكل علم للانسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فاذا قال لنفسه : لابد لي من اللغة ! فلا ينس أن يقول لنفسه : نعم . وحـذار من هذه اللغة ، فان النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون ..

من منافعها انها تحصر المارد المنطلق فتحبسه في القمقم المرصود مطيعاً حيث يراد ..

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة في قمقم واحد ، فتنطلق مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وندع منها ذاك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علَماً على شيء واحد ، وكثيراً ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذي يحتوى فيه عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة لضرورة التمييز والتقسيم .

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحس ؟ ما الضمير ؟

وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ وما وسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ وما بالنا نصغي للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل في جميع هذه الأحوال عن شيء واحد .

وما نسأل في الحقيقة الا عن أشياء كثيرة تنبيء عنهـا كلمة واحدة.

ما نسأل في الحقيقة الا عن عشرين ماردأ أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذي نشير اليه.

وفي سياق هذه الرسالة ــ رسالتنا عن حكمة جحا أمير المضحكين نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟

ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك لسبب واحد ..

وما نفكر في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التي لا غنى عنها ، ولا أمان منها كذلك ما لم نعرف، سر الرصد المسحور.

وها نحن أولاء في هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد في كلمة واحدة ــ كلمة الضحك ــ لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضاحيكه بين أشتات المضحكات ..

الضحك ضَحوك عدة اذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد.

ونحن نضحك لأسباب كثيرة ، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التي تصدر عنها ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنما هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير.

هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والاعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهنـاك ضحك المقرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار ..

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الأحوال.

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهواً بنفسه واحتقاراً لغيره ، وقد يكون سروره فرحاً بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح اليها ولا يتمنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه ينفس عن عاطفة لا يستريح اليها عامة بين اخوانه الآدميين ، ولا خاصة في أحد يعنيه من أولئك الاخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحماقة قد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه ..

***

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهة والضحك ، كلما ألف القراء أسلوباً منها وسئموه أو اشتاقوا الى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التي تدعو الى الضحك ، وتمايزت بأسمائها وعلاماتها ، وأوشك الكتّاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتفوق في كل باب من هذه الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة ..

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتّاب بما ليس عندهم اذا سألناهم أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة الى مصادرها من الطبيعة البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على تجربتهم في التنويع والافتنان ، لأنه عمل يزاولونه كل يوم ، ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن الى فن ، ومن أسلوب الى أسلوب ، ولو لم يكن هذا الاختلاف في الأساليب الا اختلافاً في التعبير والتنميق .

ومن أمثلة الاجتهاد في التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب

مزاج الفكاهة The Humour of Humour لمؤلفه ايفان إيسار Evan Esar الذي اشتغل زمناً بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها ، وأراد بكتابه هذا من عنوانه الى خاتمته أن يكون تطبيقاً لآرائه واختباراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعباً بالألفاظ كاللعب الذي يدخل في النكات الجناسية ، لأن كلمة « هيومر » بالانجليزية تأتي بمعنى المزاج وتأتي بمعنى الفكاهة وتدل على اخلاط الجسم في مذهب الاقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الاخلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس

ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف في كتابه ، ولكننا نشير الى بعضها على سبيل التمثيل ، وندع للقاريء أن يقيس عليها من تجاربه ما يشاء.

***

فمن هذه الأفانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « إنه يصلح أباً لها بسنّه ، وزوجاً لها بثروته » أو كلمة تقال عن البخيل : « إنه يضع نقوده في الحشية ليجد تحته شيئاً يستند اليه.»

ومن هذه الأفانين « الآبدة » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب الى المثل السائر الذي يسهل تعميمه ولا يخص أحداً بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الاشخاص أفراداً بغير تعميم ، ويدور على شئونهم ولا يدور على المواقف والأطوار .

ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء تمسحه الخمر ، وان السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين ، وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الأحمق زوجاً وله أبناء ، وأن لابس النظارة « منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقبح ! » وأن الأمريكيين أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! ..

ومنها اللغز ، وعماده على المغالطة ، أو على جمع المتشابهات التي تختلف في الحقيقة أبعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطون على تل ؟ » فيجيب المجيب : « لأنه مات.» !

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشيء الذي يصنعه الرجل واقفاً وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث.؟ »

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء.»

ومن أفانين الفكاهة الجنـاس اللفظي ، وهو يشبه اللغـز في السؤال والتورية ..

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ »

والجواب : « التأمل والنظر.» !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ »

والجواب : « كلاهما له ورق ! »

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت اذا حطم الساعة ؟ »

والجواب : « كلا ! اذا ضربت الساعة أولا »

ومن هذه الأفانين المساجلة والمحاورة ، وقد يكون السائل فيها هو المجيب .

تقول لي : « لماذا تشرب الخمر ؟ .. قل لي ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ »

وتسألني : « أي الدجاج أطول رقاداً ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ .. الذي مات ! » .. .

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه ، ووجود اللبس الذي يدعو الى اختلاف الظنون ، ومثاله قصة عن أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي ، وضابط الماني أثناء احتلال الالمان باريس . ودخل القطار نفقاً فسمع في المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الالماني أثر صفعة . فقالت المرأة العجوز لنفسها : « ما أطهرها من فتاة » ! وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « عجباً له . يقبّل العجوز ولا

يقبِّلني ؟ » . وقال الضابط الألماني : « يا له من فرنسي خبيث .. غَنِم القُبلة، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسي : « لقد نجوت بها . قبلت ظاهر كفّي وصفعتُ الألماني ، ولم يتهمني أحد » !

ومنها النادرة ، وهي نكتة لابد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعدهم المتعارف عليها : كان مارك توين ـ الكاتب الفكاهي المشهور ـ يعمل في احدى الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل انذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوماً أن كاتباً من مساعديه كان الى جانبه ، وهو يهمّ بأن يلقي بعض هذه النذر في سلة المهملات . فنبهه الكاتب قائلاً : « انتظر يا سيدي . فان في ظهر الورقة كلاماً يقول فيه صاحب الدين انه سيقاضيك ان لم تسرع الى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض في عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التي تكتب على وجهين تهمل في هذا المكان ؟! »

***

ومنها الكلمة التي تقال وتفهم على معنيين ، أحدهما يسرّ والآخر يزعج أو يخيف ، وتشبهها كلمات الجناس كلما دلت على نقيضين.

يقول الرجل لزميله في بلاد النيام نيام أَكَلَةِ البشر : « ان الزعيم يريدك للغداء.»

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب أن يتعلق بعضنا ببعض والا تعلقنا على انفراد » ..

أو يقول الشيطان : « الفضيلة في الوسط » ، وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمى وانا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر التحية وباطن الاشتراك في البلاء !

أو تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالقاطرة .. ان لمستني صرخت » !

ومما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهي أسلوب القلب والعكس ، ومن أمثلته : « ان الحب يذهب بالزمن وان الزمن يذهب

بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة ، وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب.» ومنها : « ان الانسان يخلق المتاعب وان المتاعب تخلق الانسان.» ومنها : « أن من يتعمق الى أساس الأمور ترفعه الأمور الى الذروة العليا.» ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة.»

وتكرار الكلمة في مواضعها فن من فنون الفكاهة ، كتكرار ذكر الذكاء في هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لا تبدي ذكاءها » ..

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحياناً حين لا تتوقع من المرء ماهو خليق أن يقع منه »

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة ، ولكننا لا نسعد اذا نسينا أن ننسى أنفسنا.»

والنسيان المعهود في العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة ، وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ في مكتبه بالمنزل وهو في قلق شديد على زوجته التى أدركها المخاض ، واذا بقريبة له تقتحم المكتب لتبشره بولادتها وتصيح به : « انه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريد ؟ » ! »

وذهب أستاذ الى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : « لسانك فى حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذى عليه ؟ » .. فابتسم الاستاذ وقال : « أهو هناك وأنا أحسبني وضعته على الغلاف ! »

وأكذوبة ابريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنون الفكاهية ، يقول مارك توين : « ان أول ابريل يوم واحد في السنة يذكرنا بغفلتنا في جميع الأيام » ..

ويقول المتندرون بهذا اليوم ، ان الذين يولدون فيه يكتمون تاريخ ميلادهم ليثبتوا وجودهم ويستريحوا من ولع الناس بتذكيرهم مايحاولون كتمانه ، وكذلك من يولد في اليوم التالى أو اليوم السابق .. ولكنهم يطلقون اسم مغفل ابريل على كل ضحية تجوز عليه الأكاذيب في يوم مجعول لهذه الأكاذيب.

والعثرة اللسانية أو القلمية تضحك وتهييء النفس للفكاهة ، ومن قبيلها قول بعض الخطباء على اثر حفلة موسيقيه من الحفلات التي لا تكثر في القرى : « انها لحسن الحظ حفلة نادرة » .. ويشبه هذه العثرة ان طبيباً كتب شهادة وفاة فوضع اسمه في موضع سبب الوفاة .. بدلاً من موضع التوقيع !

والغلطة مع حسن النية تثير الغيظ فيمن يصاب بها وتثير الضحك فيمن يشاهدها ، واحدى النوادر المروية عن هذه الغلطات أن صاحب حانة كان يقف وراء البنك في حانته اذ هجم عليه قادم مستعجل وسأله في لهفة : « أعندك شيء يزيل الفواق ؟ » فلم يجبه صاحب الحانة ولكنه ضربه بالفوطة المبلولة على وجهه ، فنظر الرجل اليه شزراً وهمّ أن يبطش به لولا أن بادره صاحب الحانة معتذراً ، وقال له انني أرحتك بهذه الضربة من الفواق .. ثم ظهر ان الرجل لم يكن به فواق وانما طلب الشراب الذي يزيله لزوجته التي كانت في السيارة عند الباب !

وقد يتبع الغلطة حسن التخلص فتضيف اليها فكاهة على فكاهة :

أخذ بعض المدعوين الى احدى الولائم في حديث مع جارته ، وأحب أن يبدأه بالغيبة والنقد لأنهـا من الأحاديث المحبوبة في أمثـال هذه المجتمعات ، فأنحى بالذم والوقيعة في رجل لا يعرفه على مسافة منهما ، وفاجأته السيدة قائلة : « ويحك ! انك تعني زوجي ! »

قال : « نعم ! ولهذا أكرهه ! »

وأراد طبيب مستشفى المجانين أن يتصل برقم يحتاج الى التحدث مع صاحبه على عجل ، فجن جنونه لاهمال العاملة ومراوغتها في الجواب ،

وصاح بها محتدماً : « ويلك ! أتعلمين من أنا ؟ » قالت : « لا . ولكني أعلم أين أنت ! »

والغلطة المطبعية احدى الغلطات الفكاهية أو المضحكة ، وهي خاصة بكل لغة وقلما تصلح للترجمة الى لغة أخرى ، ولكننا نضرب لها الأمثلة بما عرفناه من غلطات المطبعة عندنا واحداها غلطة الصفّاف في نقل السطور بين اعلانات الزواج واعلانات الوفيات ، فاذا بالخبر يقرأ ان العروس تقبل التهنئة من المدعوين ثم شيعوه بالرحمات والدعوات .

وحدث في الاحتفال برفع الستار عن تمثال نهضة مصر ان حكمدار العاصمة وقف على مقربة من كبار الرؤساء وقبعته على رأسه ومنشّته في يده ، فعلقنا على ذلك في كتابة أخبار الحفلة ، واضطربت السطور بين يدي الصفاف فجرى الخبر على هذا المثال :

« وحضر فلان وفلان وصاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ، ولوحظ عليه أنه كان يلبس قبعته ويعبث بمنشّته وهو على مقربة من كبار ولاة الأمور »

وكتب بعض المخبرين حديثاً مع مستر فريدرك ، فاذا به يسمى مستر فريد بك !

وغلطات المطبعة من هذا القبيل لا تحصى في جميع اللغات ولكنها تزداد في اللغة العربية لتشابه بعض الحروف .

وحسن التخلص وحده قد يحول الموقف من الغضب الى الضحك ، ولو عرف السامع أنه ملفق للخلاص من الحرج واللوم .

ذهب عريس مع عروسه الى محطة السكة الحديد للسفر الى ضاحية يقضيان فيها شهر العسل ، ثم عاد الى عروسه من شباك التذاكر ومعه تذكرة واحدة ، فصاحت به مغضبة :

ــ ماهذا ياعزيزي ! تذكرة واحدة ؟

فما كان أسرع منه الى الاعتذار بالكلمة الوحيــدة التي تخطر على البال ، ولا يخفى على الزوجة أنها عذر مختلق للخلاص من هذا المأزق

الأليم في مطلع شهر العسل ، قال :

ـ ماهذا ياعزيزتى ؟ لقد أنسيتني نفسي !

وفوجيء موظف في مصرف ، وقد أغمض عينيه ، وكاد أن يستسلم للنعاس ..

قال الرئيس : « أنائم في أول النهار ؟ »

قال الموظف « اليقظ » : « على رسلك ياسيدي الرئيس ، ألا أستطيع أن أغمض عيني لحظة للصلاة قبل بدء العمل ؟ »

***

ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها ، أو ظهور الخديعة على من يفرط في الذكاء فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط في الغباء .

دخل رجل على طبيب في « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب العلاج ، وأراد أن يوحي اليه بمقدار أجرته في غير مساومة ، فعمد الى التليفون وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! انني مشغول جداً .. تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ .. انها كما أخبرتك خمسمائة ريال .. وأنت تذكر هذا ؟.. حسن .. الى اللقاء اذن ! »

ثم وضع سماعة التليفون والتفت الى الزائر متسائلاً : « ماذا أستطيع أن أصنع لك ياسيدى ؟ »

فأجابه الزائر : « لاشيء . انني موظف مصلحة التليفونات الذي طلبته لاصلاح تليفونك » !

وكان موظفان يعملان في مكتب واحد ، يفرغ أحدهما من عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعده ساعتين أو أكثر لانجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : « كيف تنجز عملك في هذا الموعد ؟ » قال صاحبه : « انني لا أنجزه أيها الزميل ، ولكنني كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على الورقة : يعرض على مستر سمث . ولابد أن يكون في هذا المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال » !

فخلع صاحبه سترته ونظر اليه متحدياً وهو يقول كمن نشط من عقال : « الآن تبقى أنت للساعة السادسة .. أنا مستر سمث الذي تجهله . فاعرفه بعد اليوم » !

ومن أساليب الفكاهة الاقضية التي يسمونها بالاقضية السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة ، فأراد المحامى أن يجر القاضى الى شَرَك يغريه بالوقوع فيه ، وتحذلق في دفاعه متعمداً فقال : « انكم تعاقبون رجلاً كاملاً بعمل ذراع واحـدة هي التى جذبت السلعة المأخوذة من وراء القضبان » ..

قال القاضى ، وهو يظن أنه أوقع المحامى في شَركه : « حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر ، ولينطلق صاحبها حيث يريد. »

فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف !

والمفارقة احدى هذه المضحكات ، وعلى نحـوها نصيحة الناصح :

« لا تقص على الاصلع حكاية يقف لها الشعر . فهو جهد ضائع. »

وعلى نحوها تحذير المحذِّر : « لا تقتـل الرجل الذى قبّل زوجتـك اليوم ، فانك لم تقبّلها منذ سنة ! »

ويأتى الضحك من تناقض المعاني الكثيرة في هذا التحذير.

فمنها أن الرجل الذى قبل الزوجة لقي عقوبته التي تساوي القتل

ومنها أنه قام بواجب أهمله الزوج .

ومنها أنه لازم في المستقبل.

ومنها أشباه ذلك كثير ...

وعلى نحوها : « ان غاية الكسل أن تستيقظ عند الفجر لكي تجـد وقتاً طويلاً للدوران »

والصورة الهزلية ، في الكلام ، أهم هذه المضحكات ، ومن هـذه الصور أن فلاناً بلغ من طول وجهه أن الحلاق يتقاضاه أجر الحـلاقة ضعفين ، وان فلاناً بلغ من ضخامته أن ظله وقع على رجل فمات ؛ وأن فلاناً بلغ من طوله انه يصعد على كرسى ليغسل أسنانه !

وسرعة الجواب مع المغالطة فيه لون من ألوان الفكاهة وتهيئة النفس للضحك ..

مصور له أولاد قباح .. يداعبه ناقد فيعجب له كيف يصنع أولاده بهذا القبح ويصنع صوره بذلك الجمال.

والمصور يجيب : « لا عجب ياسيدي . أولادي أصنعهم في الظلام وصوري أصنعها في النور » !

وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان ، وهو منذ ثلاثة أشهر عاكف على الشراب.»

فتقول الزميلة وهي تصطنع الجد في الجواب : « هذا الذي نسميه مبالغة في احياء الافراح » !

وتهزأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من الذي ألف لك كتابك الأخير ؟ انه بديع.»

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرني والله انه أعجبك من الذي قرأه لك ؟ »

***

وتعد « المقالب » من بواعث الضحك ، وهي الأكذوبة التي توقع السامع في بعض الغرم أو بعض التعب ، دون أن يصحبها ضرر أليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعي ، والاعتدال فيها كالدعوة الى وليمة ، ولا وليمة ! أو تقديم الحلوى وفيها دواء .. غير مطلوب .

ومن الفكاهة إتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تخطر في الحسبان ، ومن أمثلتها أن الألفة في الحب تولد الاحتقار .. والاطفال ، وأن الفتاة التي تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف ، وأن تفاحة في اليوم تبعد عنك الطبيب ، ولكن بصلة في اليوم مفعولها أكيد .. تبعد عنك كل انسان ، وأن اثنين لازمان للشجار ، ولازمان أيضا للزواج ، وأن المال ينطق .. والمال يخرس !

والسخرية احدى هذه الالوان ، ومن السخرية أن يقول القائل جاداً

كأنه يعني ما يقول : « ما بال فلان ينتقم مني كل هذا الانتقام ؟ انني لم أحسن اليه كل هذا الاحسان ؟ »

وذهب فتى الى شباك البريد ، فوجد الموظفتين في شاغل عنه بحديث طويل عن زي فستان السهرة الذي كانت تلبسه أحداهما ، فتأنق الفتى في الوصف والرجاء ، وطلب الى إحداهما أن تتفضل باعطائه طابعاً قرمزيّ الوسط وردي الحافة منقوش الاطراف والجوانب ، ومشغولاً كله ولا يساوي مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة باب من ابواب السخرية ، تتشابه الأمثلة عليها ، ويدخل فيها التهكم والمجاراة .

خلا أحد المدعوين باحدى المدعوات في سهرة الرقص فقبّلها ، واستجابت لقبلته لحظة غير قصيرة ، ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم أنها أول قبلة رضيت بها في حياتي ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لانك على ما يظهر ورثت الشيء الكثير بغير تعليم. »

وتحدث بعض الجلساء في دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها ، كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها ، فأثنت احدى الجالسات على سرعة نهمه ، لأنه يعرف الكثير عن المكاسب مع قلة مايكسب !

***

والنصائح المطردة ، مع القياس الظاهر ، مع استحالتها بعد التأمل اليسير ، أحد هذه الأقسام التي اصطلحوا على تقسيمها في الصحافة الفكاهية ، ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج .
وقل لا لمن يهمون بالطلاق .
وقل لا لمن يهمون بالموت .
وقل لا لمن يهمون بالولادة .

ويتمشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة ، فقال له : « نعم . اليوم أعمل بوصفة

جونس ، وغداً بوصفة سميث ، وبعد غد بوصفة براون ، فان بقيت مني بقية لوصفتك يوم الأحد فهو دورك !

وقد تطّرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق اذا علمت أن كل شيء يذهب في الغسيل ، حتى البدلة !

« لا تنتفخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لا تحمل هم الزبدة . انك تصنعها من حشائش الأرض ، متى تيسرت البقرة !

« لا تتردد في بذل النصيحة ، لا أحد سيسمعها .

« لا تعمل بنصيحة ، وأولها هذه » !

***

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين في مسائل الزواج على الخصوص ، وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبّل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد الزواج تربطه لتقبله.»

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حباً ، وبعد الزواج يأخذ بيدها دفاعاً عن النفس .»

« قبل الزواج يقول الرجل لابد أن ينفذ أمري في منزلي أو أعرف السبب ، وبعد الزواج يعرف السبب ! »

« قبل الزواج يسعى الرجل الى المرأة ، وبعد الزواج يسعى للمرأة ! »

« قلما يكون الرجل بالمزايا التي تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالعيوب التي تراها فيه بعد الزواج.»

« في بعض البلاد الشرقية لايرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفي البلاد الغربية لايراها بعده ! »

ويلحق بهذه الزوجيات تهكم المحدّثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كمـا يقال فى مصر باللغة « البلدية » .. ومنه أمثال هـذه المقارنة :

« البنت من الدقة القديمة تحمر اذا خجلت ، وبنتها العصرية تخجل اذا احمرّت !»

« والبنت من الدقة القديمة كانت تذهب إلى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات ، أما بنتها العصرية فانها تذهب الى المدينة ولا تقف عند شيء !»

« والبنت من الدقة القديمة كانت تشعر بالاهانة اذا عرض عليها الشراب ، وأما بنتها العصرية فتبلع الاهانة.»

« والبنت من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن بنتها العصرية لاتجسر على تركها .»

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات ، ولكن ابنه العصري له عين تنظر اليها » !

وهم يصطلحون على تسمية انسان مشهور ينسبون اليه الحكمة التى يخترعونها لساعتها ، من قبيل قول الشرقيين « قال الراوي » عند اسناد الكلام الذي يعلم السامعون انهم مخترعوه .

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للاسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس .

فمن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الرجل الذي يسوق بيد واحدة يصطدم بالكنيسة .»

وهم يعنون بذلك خطر الزواج ، لأن الرجل الذي يسوق بيد واحدة يخاصر امرأة معه في السيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الفتاة التي لها مستقبل تحذر الرجل الذي له ماض.»

ومن كلامه : « الرجل الذي يغازل المرأة على المصعد ليس في مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب من المزاح الفارغ الذي يشبه ما يسمى في الزجل العربي الحديث بالدور المجنون:

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك في بلدة بفالو ؟ »
فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط الى تلك البلدة. »
ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! »
ويجرى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :
ـ ماذا تصنع ؟
ـ أبحث عن ورقة ضائعة .
ـ أين سقطت منك ؟
ـ في الشارع الثامن والثلاثين
ـ لكننا في الشارع الأربعين !
ـ نعم ، أعلم ذلك ، ولكن هنا نور !

والحكمة التي « يفلت » منها درسها محسوبة في هذه الأضاحيك :

تقص المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذي لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الأطفال في براءة أو فى خبث : « والحمل الذي سمع كلامها أكلناه نحن » !

أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « ان العصفور المبكر يلتقط الدودة » ..

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أنهذه « التقسيمات » لاتبدو غريبة للقاريء العربي الذي ألمّ بعلوم البيان والمعاني والبديع ، لأن الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثلته وشواهده في تلك العلوم ، ومامن قاريء عربي ألمّ بعلوم البلاغة بعض الالمام الا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والاضمار في مقام الاظهار ، واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل ، والقلب والالتفاف والتغليب ، والكناية والتحريف والتصحيف.

كل هذا مألوف للقاريء العربي من بلاغة لغته ، كما يألف من كتب

الصناعة اللغوية جميعاً محكم القول في جوامع الكلم والفرائد والاوابد والمثل السائر واللحن الذي يحسب من الألغاز والألغاز التي تحسب من ضروب الرمز أو الايهام والتعمية .

الا اننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسـيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما اليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وانما وضعت للتفرقة بين موضوع وموضـوع من مادة الصحافة الفكاهية ..

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأضاحيك لم تزل على فجاجتها الأولى ولم تبلغ بعـد من الدقة في الأسـماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها في علوم البديع والمعاني والبيان ، وقد يختلط بعضها لاتفاقه في مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينها الا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزاءه بالاشارة والنظرة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية.

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات ــ ولو بحكم العادة ــ جدير أن نتوقف عنده وننتظر مايليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع الى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعني بذلك تمييز الفهم والتفسـير ولا نقصر الأمـر على الشـعور والتلبية النفسانية ، فاننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشـعور والتلبيـة بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والمضحكات في الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف

مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا الى ينابيع الشعور المتعمقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكيات وتكمن أسباب الغرائب والمألوفات ، وما ينبغي لنا أن نزعم أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الالفة أو موقع الغرابة في أعمق الأعماق ..

وربما كان اسم « الضحك » مغرياً بالاستخفاف منافياً للجد في بواعثه ومعانيه ..

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجد الذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظائم وأفدح المحزنات . بل ربما كان الأمر « المحزن » يسير التعليل لأننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع الى حب السلامة وكراهة الضرر والاصابة ، وربما كان لنا نحن الآدميين شركاء في الشعور بالمحزنات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا ، لأن الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسداني لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة ، ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب ــ مع التفرقة بينها في الاسماء ــ حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان ..

هذه عوارض نفسية يختص بها الانسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى أو العليا ، بل يعتقد الكثيرون من علماء الاجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك ، وأن هذه الظاهرة المترقية في سلم الانسانية لا تشاهد بين الهمج الا بعوارض العصبية التي لا تدخل في حيز الارادة ، كأنها ضحكة المقرور أو ضحكة المتشنج ، وحتى هذه الضحكات التي تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة تجعلهم يلتفتون اليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة ، فهي والتخبط من الصرع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية الجد في النظر الى الضحك وأسبابه منذ عهد بعيد ، ولا جرم يجدون اليوم وغداً في هذه الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين ونقاد للفنون والآداب .

ونحن في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الانسانية كلها بهذه المعرفة ..

***

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيداً لنا في وضع جحا بموضعه من الحياة الانسانية حيث كانت في كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل ، فان بعض هذه التعريفات يرينا ان « جحا » ليس بالغريب المجهول في بيئة من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من نوادر جحا وبوادره مانستغرب ، وبعض الأمثلة التي تقدمت نستطيع أن ننسبها الى جحا فلا تخالف في معدنها ما ينسب اليه ، وهذه احدى العلامات على سريان الضحك مسرى اللغة بين بني الانسان ، فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس معاني مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والأجناس ، وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس ، كما يختلف بين قائل وقائل في مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد في أسرة واحدة .

وسنعرف « جحا » حقاً حين نعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير اختلاف ، ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء ، ومن انسان دون انسان ..

وسنجد « جحا » واحداً ولكنه « جحا » الناس أجمعين ، لأن الناس أجمعين يضحكون منه وان لم يظهر في غير موطن واحد أو مواطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لأن الانسان حيوان ضاحك حيث كان ، ولعله ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعدُ أسباب الضحك على جليتها ، وسنرى — بعد — مقدار ما فهمه ويفهمه .

وسنضحك من بعضها وهي صحيحة أو باطلة ، فنتعلم من الضحك كيف تتلقى تلكم الأسباب .

لماذا نضحك ؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يعنيهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها اذا عرف أسبابها .

قلت في الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : « تتسرب الى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغاني ، أو يلعبان الدومينة قليلاً ، وهي لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة .. فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة ، وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء ، وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة .. أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين مافي يديك .

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وانني لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه .. »

وأقول في صدد البحث عن أسباب الضحك أنني أشبه هماماً في هذه الخليقة ، وانني أحب أن أفهم ما احسه وان احس ما افهمه ، وانني جريت على ذلك في البحث عن اسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن بصدده . لأنني اذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفي خلال النظر والمطالعة والتجربة الى اليوم — تدرجت بهذه الأسباب في أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتتبع والوصول الى النتيجة ..

كانت لي فى نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدوّن فيها خواطري وتعليقاتي ، جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحذفت منها عند الطبع كثيراً من الخصوصيات التي ترتبط بتلك الخواطر لا أذكره الآن.

وأحسبني قد كتبت فيها عن المضحكات أكثر مما بقي فيها بالنسخة المطبوعة ، ولكنني لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من الضحك وقلت بهذا المعنى في الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة :

« ان المضحكات ليست بالقليلة ، ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضروري أن نفتش عن رجل من أمثال موليير لنُغرب في الضحك ، فان في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطناً للنقص ، وفي كل عمل موضعاً للكلفة والتصنع .. والوادع الناعم البال — ولو كان مغموراً بالشقاء — ذلك الرجل الذي يعرف كيف يفطن الى مواطن الغرور والرياء من أعمال الانسان ، فانه لايطبق فمه مادام يفتح عينيه » ..

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة التي يحاول صاحبها أن يخدع الناس عن الحقيقة ، وهى واضحة لمن يلتفت اليها.

ولا أذكر أنني تحريت الترتيب عند طبع الخواطر والمفكرات ، ولكنني أجد في الصفحة الثالثة والأربعين هذه الخاطرة عن الضحك ، وفيها أقول

إن « للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا ، اما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا ..»

« ولما كان الانسان لا يضحك الا سروراً برجحانه فهو لايضحك في الأحوال التي رجحانه فيها معروف غير محدود . فالرجل المعروف المكانة ليس يضحك من تصرف الصعلوك الوضيع وان كان مضحكاً في ذاته ، الا اذا كان يسخر من أهل طبقة ليباهي بطبقته أو من أهل بلاد ليباهي ببلاده.»

« وقد يضحك الانسان من نفسه اذا كان الاستهزاء لا يناله وحده ... فلما كان ملوك أوربا وأمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين في سنة ١٨١٥ فى فيينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون مادرسه من معالم أوربا — أعلن في المجلس .. ان الرجل قد أفلت من جزيرة إلبا وانه قد عاد ثانية امبراطوراً على فرنسا . فوجموا هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم : ان هذا الكورسيكى لم يعبث بي وحدي ، بل عبث بنا جميعاً.»

ويلي هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت فيها ان الانسان « يبكى لغير ما يضحك له : يبكي حين يظهر به النقص والعجز ظهوراً لا سبيل الى المداجاة فيه . يبكي في المواضع التي يشعر لديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده من الحول والقوة حيالها. »

« في تلك المواضع يقول المسلم متمثلاً : لا حول ولا قوة الا بالله . كأنه لا يريد أن يكون ضعيفاً الا أمام الله الذى يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاءً لأنهم أقلهم اقتداراً .. على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع المصاب ، فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار على كل حال.»

الضحك والبكاء نقيضان

في هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان ، وان الانسان يبكي لغير ما يضحك له ، ومدار الضحك والبكاء معاً على الغبطة بالنفس أو نقيضها . فاذا اغتبط الانسان بنفسه ضحك واذا شعر بالمهانة والنقص بكى ..

وليست هذه المقابلة بالصحيحة في جميع نواحيها ، اذ نحن لا يضحكنا كل شيء لا يبكينا ، وقد يكون الشيء مضحكاً ومبكياً كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضكا ت ولكنه ضحكٌ كالبكا

والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا في الفصل السابق ، وليس من اللازم أن يقابله البكاء في كل حاله ، وقد قال الشاعر بيرون وغيره : «انني أضحك لكي لا أبكي» .. كأنما يقولون إن الضحك بدل من البكاء في بعض الأحوال ، ويشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الخاطرة أن بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتىفيالفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار .

ونقول إنه شبه بعيد .. لأن الذي يضحك « لكي لا يبكي » يضحك حقاً ولا يتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ماليس يكشفه غيره ، أو لأنه يوسع النظر الى المسألة ولا يحصرها في أضيق حدودها . فهو ضاحك لأسباب أوسع من الأسباب التي تبكي غيره ، وان لم تتناقض هذه الأسباب وتلك الاسباب .

وقد كان آخر ما دونته في خلاصة اليومية عن الضحك كلمة فى الصفحة السادسة والثمانين ، فحواها أن قوة الاستحضار في الذهن لها شأن في الشعور بالمضحكات وغيرها .. « فمن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمراً مضى فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلاً في ذلك الحين ... »

وفي ختام هذه الخاطرة أقول ان « الرحمة ليست اذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون ، ولكنها طبيعة من طبائع الانسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه ، وذلك مالم يصل اليه الحيوان.»

وفحوى هذه الآراء في مجموعها ان الشعور بالمضحكات والمحزنات ملكة انسانية وجدت في الانسان ولم توجد في الحيوانات لأنه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعي الخواطر من قريب أو بعيد .

ملكة السخرية

ولست أحصي تطور هذه الآراء خلال الفترة التي تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة الى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك في عمومه ، وانما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمتُّ اليه ، كسخرية أبي العلاء والصور الفكاهية في المرآة من تأليف الأستاذ عبد العزيز البشري رحمه الله .

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعري سائلاً : « لم يسخر الانسان ؟ »

ثم أجبت قائلاً : « انه ينظر الى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيبتسم ، وينظر الى لجاجهم في الطمع وإعناتهم أنفسهم في غير طائل فيبتسم ، وهذا هو العبث . وذاك هو الغرور .

« فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فانما هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيراً ما يلتقيان . فان الغرور هو تجاوز الانسان قدره.والعبث هو السعي في غير جدوى ، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان الا عن اغترار من المرء بنفسه وتعدٍ منه لطوره .

« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الغرور والعبث مادة الضحك وجرثومته التي يتفرع منها كل مضحك من الأعمال والأقوال ، ويجربون ذلك كل يوم في مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالهم ، يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شيء ، فيأخذه بأن يفتحها ويعده بكل ما يجد فيها اذا هو قوي على فتحها ، فيجاهد الطفل في ذلك مايجاهد: يقوم ويقعد ، ويشتد ويحتد ، ويلتوي ويعتدل ، ويرفع اصبعاً بعد اصبع ، فاذا الذي رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعييه الجهد فيركن الى الملق والخديعة ، وهو في كل هذا يحسب نفسه قادراً على أن يغلب أباه عنوة وقسراً أو يغلبه خديعة ومكراً ، وهذا هو الغرور .

« ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فاذا هي خاوية واذا بذلك العناء الذي أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتعجبنا غرارتها وكبرياؤها ونتخذها تسلية ولهواً . ولكن هل يضحكنا من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة ومساخر التمثيل الا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبيانية وسذاجة مركبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« واذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعابة فما أجدر رجلاً كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخراً ؟! بل ما أجدره ألا يكون له عمل في الحياة غير السخر ؟! انه رجل استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الغرور في اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهي في تقديره الى عبث فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مغرور وكلهم عابث وكلهم متعلق من الأقدار بمثل تلك القبضة التي يعييه أن يفض اصبعاً منها ... حتى اذا فضها أو خطر في وهمه أنه فضها لم يجد ثم شيئاً ، أو وجدها ملأى مما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان .. وكلهم محتقب عدة لا تنجع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كميٍّ يحمل السـيف صارماً
إلى الحرب والاقدار تلهـو وتسخر

لا . بل هبه وصل الى الحرب بسيفه الصارم وقاتل وظفر وسـلم ، فماذا عساه يغنم ؟ ألعله الثناء على الأفواه ؟ أو لعله عرش مملكة ؟ .. إن كان ذاك ـ وقلّ أن يكون ـ فلعمر أبي العـلاء ما قصـارى الثنـاء والسمعة ؟ ..

وما يبـالي الميْت في لحـده   بذمه شُـيّع أو حمـده

وما العروش والدول ؟ وما الملوك والأقيال ؟ فلكم غبر على هذه الأرض من جيل وزال من مجد أثيل وملك عريض طويل :

وكم نزل القيـل من منبر   فعاد الى عنصر في الثرى
وأخرج من ملـكه عارياً   وخلف مملـكة بالعـرا

... وهل نسينا أن القبر يضحك من تزاحم الأضداد ؟ فهكذا تتشابه الأمور فاذا الهزل كالجد واذا الحلم كالعيان !

وشبيه صـوت النعيّ اذا قيـ   ـس بصوت البشير في كل ناد

لا بل هو كل شيء ككل شيء . هو العلم كالجهل والحق كالباطل والهدى كالضلال ..

وقد زعموا الافلاك يدركها البـلى   فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر

فعلام اذن يزعج الانسان نفسه ؟ وبأي شيء يحفل ؟ وما اجتهاده في التدبير والتقدير وتغيير ما كان بما سيكون ؟ الا أننا لنسعد ونشقى عبثاً ، ونسعى ونسكن عبثاً ، ونرجو ونقنط عبثاً ، ونبكي ونضحك عبثاً ، ومن وراء ذلك كله هاتف يهتف بنا في غير رفق ولا رحمة :

« تقفون والفلك المحـرّك دائر   وتقدّرون فتضحك الاقدار »

مرد النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية باحدى عشرة سنة ، وبعد كتابته بأربع سنوات عقبت على كتاب « في المرآة » للاستاذ البشري

الذي يقول في مقدمته :

« ان مرد النكتة الى خلل في القياس المنطقى باهدار احدى مقدماته او تزييفها أو بوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم . فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ... وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع ، ولا يعزب عنك كذلك أن النكتة اذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج في ادراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام »

وكان تعقيبي على مقدمة الأستاذ البشري « انه على صواب في جزء واحد من أجزاء هذا التعريف وهو الذي يقول فيه إن الخلل في القياس المنطقي مضحك وأن التزييف والتلفيق داعية من دواعى السخرية . أما الجزء الذي نراه على غير الصواب فيه فهو قوله ان النكتة هي التي تشتمل على الخلل أو على التلفيق والتزييف . لأن اشتمال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والمجانة ، والذي نظنه نحن ان النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطّرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هي المنطق الصحيح وهي الحجة المفحمة وهي البرهان الذي يرجع بالبراهين في معرض الجدال .»

« .. وقد يسأل سائل : ولماذا تضحكنا النكتة السريعة ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبسوطة ؟ فجواب هذا قد يوجد في تعليل هربرت سبنسر للضحك وهو خير تعليل وقفنا عليه في كتابة المعاصرين ، ولا نقصد هنا الا تعليل حركة الضحك الجسدية لا تعليل أسباب الضحك . فان السبب الذي يذكره برجسون مثلاً رجيح صالح لتفسير كثير من علل المضحكات ، ونعني رأيه الذي يذهب فيه الى أننا نضحك من كل تصرف في الانسان يشبه التصرف الآلي الخالي من التفكير ، ونحن مع هذا نقول ان التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدي الى رأي

صائب ، لأن الضحك وان كان اسمه واحداً الا انه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

« ونعود الى رأي سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول ان الضحك عنده ينشأ من تحول الاحساس فجأة من الأعصاب الى العضلات . فان من المقرر في النفسيات أن الاحساس اذا اشتد وألحف على الأعصاب تجاوزها الى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رقيقة على حسب قوته واشتداده ، فاذا حبس الاحساس في طريقه فجأة تحوّل بغير ارادتنا من الأعصاب الى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثراً وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين ، فتتحرك بالابتسام أو بالضحك أو بالقهقهة أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله . والدليل على ذلك أننا نضحك اذا غلبنا الاحساس وتحول من العصب الى العضل أياً كان الموحي به والباعث عليه . فنضحك من الغيظ والألم ونضحك الضحكة الهستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الاحساس عليها الى العضلات ... فالضحك هو الانتقال فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية ، والنكتة السريعة تضحكنا لأنها تفاجيء التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن انتظار النتيجة في طريقها الممهد المألوف . ومن الأمثلة التي أوردها سبنسر للمضحكات منظر جدي يظهر على المسرح فجأة بين حبيبين يتناجيان ... فاحساس النظارة هنا يمشي في طريق الغزل وينتظر أن يمشي فيه الى نهايته المناسبة له ويوجه الذهن الى هذه الناحية . ولكنه لايلبث أن يلمح الجدي على المسرح حتى يحتبس في موضعه ويتحول على غير انتظار الى ناحية أخرى ، فيندفع الاحساس من الأعصاب الى العضلات وتحدث الحركة التي نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرئتان ... وفي كل نكتة شيء من هذا التحول الذي مثّل له سبنسر ينجم عن المفاجأة بما ليس في الحسبان ويتلخص في اظهار نتيجة غير النتيجة التي تبدر الى الذهن لأول نظرة من الشيء المضحوك منه ..

« فالنكتة الصادقة هي الحجة التي تظهر لنا فساد الأقيسة المختلفة واضطراب النتيجة التي تأتي في غير موضعها وتلتوي على مقدماتها . وهذه هي النكات التي تفيد النفس لأنها تروح عنها وتفيد الذهن لأنها ضرب من المرانة على التفكير السريع وشحذ للفهم وتقويم له على المنطق السديد . ولنكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم خير من مائة درس في المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لايحسن القياس ولا يفقه الدليل.

« وكتّاب الأوصاف المضحكة يعتمدون في نكاتهم على ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضاً وقد لا يجتمع منها ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة السخر وهو يحتاج الى الذكاء وادراك الفروق وقد يصحبه شيء من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهي تحتاج الى مرح في الطبيعة مرجعه في الغالب الى المزاج لا الى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظائم الأشياء وقد يستحل الضحك في جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضي الانسان عن نقائص الناس ويضحكه كما يرضي الوالد الشفيق عن جهل وليده الصغير ، وخير هذه الملكات واعلاها ملكة السخر يمازجها العطف ، وهي عبقرية لا تقل في اقتدارها على تجميل الحياة وتثقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين . . »

وقد عنَّ لي غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم عن النكتة (في سنة ١٩٢٧) أن أتوفر على تصنيف كتاب واف أبسط فيه منادح البحث عن مصادر الأحاسيس التي تمتزج بالفنون والآداب كالاحساس بالجمال والاحساس بالجلال والاحساس بالمقدس والاحساس بالمليح Pretty والاحساس بالمضحك على أنواعه ، ولكنني وجدت الوقت يضيق عن استيعاب هذا البحث لضخامته وصعوبة مسالكه وجدّته في اللغة العربية وسائر اللغات ، فجعلت ألمس هذا الموضوع متفرقاً من حين الى حين ، وكان أهم ما لمسته في مسألة الفكاهة توضيح أقسام السخرية من حيث النية ، اذ يكون منها ما يلجأ اليه الساخر كأنه يفتش عن العيوب الانسانية

مستريحاً الى وجودها وبقائها ، ويكون منها مايلجأ اليه الساخر آسفاً مضطراً كالأب الذي يعرف عيوب ولده ويبالغ فيهـا ويفرط في التأنيب فيقول له انه لا يفلح ولا يرجى وهو في الواقع أول من يرجو له الفلاح ويتمنى لو يكذب ظنه في تلك العيوب.

ووقفت بالبحث حيث وقفت في الـكلام على النـكتة ورأي سبنسر وبرجسون فيها ، وأعني أنني وقفت بالبحث كتابة ولم أقف به عنـاية بالموضوع واطلاعاً على آراء خبرائه وذوي الاختصاص بفنونه ، وكنت كلما توسعت في استيعاب آراء الخبراء وتواريخ هذه البحوث من أوائلها بدا لي أن فهم « المضحك » كما فهمته لأول الأمر مقابلاً للمبكي أو المحزن بداءة طبيعية لهذه البحوث ، فان الفلاسفة الذين تكلموا عنه قبل أربعـة وعشرين قرناً انما تحركوا من هذه النقطة ، فوضعوا التراجيدية أو المأساة مقابلة للكوميدية أو المهزلة ، وضموا الجد والبكاء جميعاً في تعـريف المأساة كما ضموا الهزل والعبث جميعاً في تعريف المهزلة ، وكذلك فعـل أفلاطون وفعل أرسطو من بعده واقتدى بهما كل من تصدى لتحليل فنون المسرح والشعر عامة مع قواعد الخطابة والبلاغة في جميع هذه الأغراض.

يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو الذي تغلب عليه المقابلة الاسمية بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك ويتشعب وتلوح منه الأفانين التى لا يقابلها البكاء في كل حالة ، بل يدخل فيها ويحسب منها في بعض الحالات ..

الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ في تلخيص آراء أفلاطون وأرسطو لاننسى من السابقين لهما فى تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد الضحك وشاهداً من الشواهد التي يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته ، وهما الفيلسوف هيرقليطس المولود في القرن الســادس قبـل الميـلاد ، والفيلسوف ديمقريطس المولود في القرن الذي يليه .

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لا ترقأ له عين ولا يبتسم له ثغر ، ولا يزال ناعباً على قومه سوء ماصنعوا وما يصنعون من أمورهم العامة والخاصة.

والثاني كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك لا يكف عن الابتسام أو القهقهة ولا يكرثه خطب من الخطوب جل أو هان ..

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتينى الساخر ان العجب لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فان دوام الضحك ـ صحيحاً أو متكلفاً ـ لا يشق على أحد يريده ، وأما العجب كله فمن ذلك الفيلسوف الذي يجد في عينيه معيناً لا ينضب من الدموع ويحزن جداً أو يتكلف الحزن تمثيلاً ولهواً حيثما وجد مع الناس.

والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث في حقائقه وأكاذيبه ..

فمن من الرجلين ياترى أدعى الى الضحك عند الناظرين اليه ؟..

أنضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام والقهقهة ؟

يخيل الى الأكثرين أن الرجل الذي لا ينقطع بكاؤه أدعى الى الضحك من الرجل الذي لا ينقطع ضحكه وابتسامه ، وأنهما ـ بعد ـ موضوع صالح جداً للدعابة والسخرية.

وأول مايرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما غير معقول .

وهنا نذكر أن الانسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك ، وانه استأثر بالنطق وبالضحك ، لأنهما مقياسان مشتركان للعقل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضا أن النكتة وسيلة لاظهار الخلل المنطقي وان كل الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا باظهار الخلل وان الدليل المنطقي يسترسل في اظهاره بغير مفاجأة ..

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما افراط

وخروج من الجد الى ماعداه ، وماعدا الجد يلتقي بالضحك ولو في بعض الطريق ..

وغنيّ عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التي تفهم من كلمة الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك ، وانهما تعرضا لهذه الزيادة في الوصف لأنهما مبالغان أرادا أن يكشف الناس هذه المبالغة منهما فوصلا بها الى غايتها المستحيلة ، وصنعا لهما بذلك الوصف صورة هزلية تشبه الصور التي يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون ابراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج بها عن جميع مألوفاتها .

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه أحياناً بحركات صبيانية ليست من البكاء ولا الحزن في شيء ، فكان يلعب مع الأطفال ليسأله الشيوخ فيجيبهم بأن الاطفال أعقل منهم في تدبير اللعب ، لأنهم لم يصنعوا في ألاعيبهم ماصنعه الشيوخ المحنكون في أحق الأمور بالجد والرصانة .

وكان ديمقريطس يسيح في الأرض من بلاده الى مصر والحبشة وفارس والهند وكل قطر معمور ، وكانت الدنيا على أيامه قائمة قاعدة تهون فيها مصائب الآحاد الى جانب المصائب التي تحيق بالدول والشعوب ، فكان يضحك من أولئك الذين يستسلمون للاحزان ولا يعتبرون بما حولهم من عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وقيل من نوادر جرأته بالسخرية أنه اجترأ بها على « دارا » جبار الفرس وهو يسيح في بلاده ، فان هذا الجبار أحزنه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس باحيائها بعد دفنها ، وقال له ان الأمر لايتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية الى الحياة ، وسأله « دارا » في لهفة : « وما تكون هذه الأسماء ؟ » فأجابه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاثة لم يفقدوا أحداً من الأعزاء » ..

وكان هذا هو العزاء ...

ولا ريب أن البديهة الانسانية كانت من قبيل الحديد الذي يفل الحديد . فهي التي لقي منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل : سخر كلاهما من

قومه فأرسله قومه في التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » بين ضاحك دائم الضحك وباكٍ دائم البكاء .

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التي انطوت عليها قصة الفيلسوف : باب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور.

ثم يجيء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « القافية » كما نقول في النكتة العربية ، وما كان للشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما الى سواء الخلقة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين .

فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد زودا فلسفة الضحك من سيرتهما ورسمهما بزاد لم تتزوده تلك الفلسفة من عقلين كبيرين كعقلي الفيلسوف أفلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان ، ولم يعرض لفلسفة الضحك بعدهما عقل أكبر من عقليهما الى اليوم ..

وكان خليقاً بأفلاطون وأرسطو أن ينفذا الى جوهر الموضوع في فلسفة الضحك وأسبابه لو أنهما قصدا الى الموضوع في صميمه ، وأرادا أن يستوعبا الفروض والاحتمالات في أسباب الضحك وأنواع المضحكات، ولكنهما لم يقصدا هذا المقصد ولم يتكلما عنه الا عرضاً في سياق البحث عن المدينة الفاضلة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية .

فأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكانهم في مدينته الفاضلة أو جمهوريته المثالية التي أراد أن يقصرها على الأفاضل والمأمونين وأن يجنبها عوارض النقص والرذيلة ، فبدا له أن الشعر موكل بالجانب الضعيف من الانسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة .

فالانسان الكريم يأبى أن يستسلم للبكاء اذا أصيب في عزيز عليه ولكنه لايبالي أن يبكي وأن يحزن اذا رأى هذا المنظر معروضاً عليه في

رواية فاجعة ، لأن البكاء يخدعه في هذه الحالة ويوقع في روعه أنه يبكي لغير مصابه ويغلب على نفسه في سبيل غيره .

والانسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكةولكنه يستسلم للضحك اذا سمعها محكية في رواية هزلية يمثلها المسرحيون أمامه ..

وليس بالحسن على كل حال أن يكون في الجمهورية الفاضلة انسان يغلب على وقاره ضحكاً أو بكاء بله الاناسيّ الذين يصورون الارباب في عليين مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول أفلاطون ان الانسان الكريم لا يعرف الجد الا بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين ولا ينغمس فيها بنفسه . وقد أثنى على المصريين لأنهم يعلمون الأبناء الموسيقى والرقص قياماً بالشعائر الهيكلية ولكنهم لايسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغاني المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل الغار ولكنهم يلبسونها ويخرجون من المدينة الفاضلة الى حيث يشاءون ..

ولم يذكر أفلاطون سبب الضحك الا في كلمات قليلة خلال هذه المباحث الأخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات ان الضحك مرتبط بالجهل الذي لا يبلغ مبلغ الايذاء ، وان الشعراء يضحكوننا حين يحاكمون أولئك الجهلاء ، ولكنهم اذا طرقوا موضوع الملحمة أو المأساة عظموا الطغيان وجعلوا رواياتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم في محاكاة الجهل ولا في محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثاً خاصّاً تتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضرباً من الهجاء والأغاني الشهوانية الى أن أصبحت موضوعاً للاضحاك والتسلية ، ولهذا جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجات

ولم يبتدعوا لها اسماً يقابل اسم « الكوميدية » كما صنعنا في العصر الحديث اذ سماها بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالملهاة وعرّبها بعضهم بلفظها اليوناني فسماها الكوميدية .

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من الدميم أو المشوه لا يبلغ درجة الايلام أو الايذاء ، وفي نبذة منسوبة اليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبل Kaibel في برلين سنة ١٨٩٩ يقول ان الملهاة تطهر النفس كما تطهرها المأساة ، لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة منصرفاً لما تنطوي عليه من العطف والشوق الى الكمال واجتناب التشويه .

وكلا الفيلسوفين قد تطرق اليه الخطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحي يعرض الفواجع بتمثيل أناس يحاكون المصابين بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيات .

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين الى الدرجة الثالثة ، فيقول ان الصورة الفضلى هي صنعة الله ثم يحكيها الصانع الخبير بالصناعة ، ثم يأتي الشاعر فيحكي عمل هذا الصانع حكاية بعد حكاية .

ولم يلتفت أرسطو الى منزلة الشعراء المقلدين الا في سياق كلامه عن الأخلاق والاستطراد منه الى أخلاق الهجائين أو الذمامين ، فلم يكن من همه أن ينشيء مدينة فاضلة يبيح المقام فيها لأناس ويحرمه على آخرين .

وليس في هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبيرين ، لأنهما بادئان في طريق لم يسبقهما اليها سابق من الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منهما حقاً أن يحسبا الفن تقليداً أو محاكاة ولا يحسباه خلقاً وابتداعاً من الشاعر على التخصيص ، مع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانع أو الخالق باللغة اليونانية .

ونقول ان هذا عجيب من الفيلسوفين حقاً لأنهما كانا يستطيعان أن يعلما أن وصف كرسي في الشعر أصعب من عمل كرسي بصناعة النجارة ،

وأن النجار الذي يعمل ألف كرسي لايستطيع أن ينظم بيتاً واحداً من القصيدة التي تنظم في وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام أن يصور كوباً من الفخار ولايستطيع الفخاري الذي يصنع الآنية الفخارية جميعاً أن يخرج صورة لكوب صغير منها.

وقد زاغ هذا الفهم الخاطيء بالفيلسوفين عن أسباب الضحك في تفصيلاتها ، لأنهما التفتا الى فكرة التقليد فجعلها أحدهما اسفافاً دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلباً للمعرفة يكاد أن يتساوى فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر اليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ الى مواطن الضحك فيما يتحراه من الصور المضحكة ومن تنويع عرضها وتمثيلها ..

لكنهما على هذا الخطأ الذي لاينجو منه كل مبتديء قد نجحا في التعريف بسبب الضحك نجاحاً غير قليل ، لأنه كان أساساً لما بناه التابعون كما كان أساساً لنقد الناقدين.

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه ينم على جهل لم يبلغ درجة الايذاء والايلام ، أو اننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويهاً لم يبلغ هذه الدرجة ــ كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعقيب ولا يرفض كله جملة واحدة في تعريف من تعريفات المحدثين.

وكل مانعترض به على التعريفين ان الانسان قد يتبلد شعوره عن الألم والضحك في وقت واحد ، فليس كل انسان يرى التشويه ولا يؤلمه يضحك منه ، لأنه قد يكون بليداً يخفى عليه التشويه والألم في آن.

وانما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشيء من الأشياء حتى ماكان من قبيل المتعة المادية ، اذ كان الألم على الأقل صارفاً للشعور عن سبيل المتعة ، ان لم يكن مناقضاً للشيء المضحك أو للشيء الجميل أو للشيء الجليل.

ونضرب المثل لذلك بانسان مشوّه ينظر اليه صاحب الاحساس المرهف فيدرك مايعانيه ، وينظر اليه الطفل الغرّ أو الرجل الجلف فيهزأ

به أو يولع به للضحك منه واضحاك الناس عليه.

فلا يجوز أن تفهم من ذلك أن الرجل الحساس غير صالح للضحك وغير خبير بالمضحكات ، لأنه قد يحس منها مايجهله الأطفال الاغرار والرجال الأجلاف . بل يجوز أن نقول ان الطفل الغر والرجل الجلف لايعرفان مايضحك ولا يعرفان ما يؤلم في وقت واحد ..

***

وندر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر الى الضحك نظرة جدية ورآه في حكمه جديراً بالبحث عنه وعن أسبابه ، لانصرافهم الى البحث في الأصول الدينية وأسرار ما وراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الأقدمين كانوا على هذا الرأي ولم يبحثوا بعض البحث في الضحك وأسبابه الا في طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميدية مع رجوع هذه في أساسها الى سير الأرباب وشعائر الدين ومحافل الأعياد الوثنية .

الا أننا قد نعثر بين الآونة والأخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى بحث في معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحثه الأخلاقية أو اللاهوتية ، وأحق هؤلاء بالالتفات الى رأيه في هذا المبحث يوسف البو Joseph Albo (١٣٨٠ — ١٤٤٥) ، وتوماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) .

فيوسف البو فيلسوف اسرائيلي ممن درسوا فلسفة الاندلس الاسلامية واقتبس منها في كتابه عن المبادىء والأصول ، وتكلم عن الضحك لأنه مذكور في كتب التوراة ومنسوب الى الأنبياء ومنهم ابراهيم الخليل.

قال : « الضحك — وبالعبرية سحوق — كلمة مرادفة لكلمات في معناها ، تدل على الفرح كما جاء عن ابراهيم انه خر على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك انه كان فرحاً بما سمع.

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول القائل : انني ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك والسخرية كما جاء ان الذي يستوي على السماء — الله — يهزأ بهم . اذ كان الضحك أحياناً دليلاً

على الشعور باحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصاً في كلام أحد أو عمله ويشعر بتفوقه عليه لأنه لا يقع في مثل ذلك النقص ، فانما يتولاه الضحك لأنه يرى الآخر يقول أو يعمل ما لا يجمل بالانسان ووقاره .

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك الى الله في التعبير المتقدم ، وسببه أنه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق شملهم ، وهي كلمات لايجمل بالبشر أن ينبسوا بها ، على حد قول الربانيين ان سبب المشابهة بين نشيد أبسالوم واخبار يأجوج ومأجوج أنه لو سأل سائل : هل من الممكن أن يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن أن يتمرد الولد على أبيه ؟.. وقد حدث هذا فمن الممكن اذن أن يحدث ذاك .

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لا يحسن بانسان أن يقوله وإلا كان أهلاً للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك الى الآله والى الانسان ..

« ويضحك الانسان أحياناً اذ يخدع غيره في أمر كان ينبغي أن يحذره المخدوع وينتبه اليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات الى الشعور بالتفوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبيء عن جهالة . ويقول العلماء ان الضحك خاصة انسانية كما يقولون ان أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك اننا لانعلم لماذا يكون الضحك مصحوباً بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الابط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينّا في شرح الآية ... »

وظل هذا الرأى مأخوذاً به في تفسير الضحك الى أوائل العصور الحديثة ، وهو على التقريب رأي الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز الذي يرجع بكل خليقة أو عاطفة ترضي الانسان الى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان ، ويرى أن الأخلاق الانسانية المحمودة تدل جميعها على القوة في صورة من صورها .. فالكرم والشجاعة والصبر والعزة

والفضائل جميعها لاتنال حمد الانسان مالم تكن مقرونة بالقدرة والدلالة عليها ، وتتساوى الأخلاق النبيلة والعواطف الرفيعة في هذه الخصلة ، بل تتساوى فيها الأعمال الارادية وغير الارادية كالضحك في صورته العقلية وصورته الجسدية . فانما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصاراً مفاجئاً أو مزية مفاجئة ، ولابد من شعور النصر أو الامتياز فيما يضحك الانسان ويرضيه ..

وهذا هو الرأي الذي توافقت عليه أقوال المتكلمين عن الضحك من عصر الفلسفة اليونانية الى العصر الحديث ، ولا حاجة الى انتظار التعقيب الأخير على جملة الآراء لاظهار الخطأ في هذا التعليل الذي يصح في جانب واحد من المضحكات ولا يصح في جميع جوانبها . فان الانسان قد يضحك أحياناً حين يشعر أنه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين تجوز عليه الخديعة البينة ، وليس في هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعوره برجحان غيره عليه .

والمثل القريب على ذلك ماتقدم عن الضحك « الاجماعي » في مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليون ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة إلبا وعودته الى فرنسا . فهذا موقف مغلوبين لا موقف غالبين ، ولا يستقيم تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين ..

وكل مايثبت في جميع الحالات أن هناك مفاجأة وأن المفاجأة تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذي يجري فيه الشعور ، وبهذا يسهل تفسير الضحك ممن جلسوا ينظّمون القارة الأوربية بعد اعتقال نابليون كأنما هذا الاعتقال أمر مفروغ منه ، ثم تقع المفاجأة بما يخالف الحسبان .

افراط المحدثين

واذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث في الضحك وأسبابه فقد يكون الافراط في هذا البحث شكوى القاريء من الثقافة الحديثة ،

لأنها توشك أن تتطلب منه تخصصاً ثقافياً مقصوراً عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعاً من الكتب والأصول ألمّ بها في رسالته عن الضحك ، ويمكن أن يزاد عليها ثلاثة أضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو عن موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج هذه الأمة أو تلك أو في آدابها ومأثوراتها .

ويعود هذا الافراط في الكتابة عن الضحك الى باعثَين جديدَين في العصور الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذي ينظر في الفروق بين الجميل والجليل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولاسيما التمثيل ، وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديداً لاهتمام أفلاطون وأرسطو بالتراجيدية والكوميدية وملكات الشعراء الذين يكتبون في المحزنات والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت اليه من موضوعات لا علاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعبودات وشعائر العبادة . فان عودة الأدب المسرحي في العصور الحديثة كانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه وأطرافه ، فكان البحث فيه عن المضحك والمبكي والحسن والقبيح مقروناً بالبحث عن المقدس والقداسة في شعور الانسان وفي الكائنات التي يقدسها ويرتفع اليها بالاجلال والابتهال ، واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعراً ونحتاً وتصويراً أن توضع لها الحدود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين مايلتبس بها من المتشابهات أو المتناقضات .

هذا أحد الباعثَين الجديدين الى افراط المحدثين في الكلام على الضحك وتعليل أسبابه وتطبيقه على الفنون المتجددة فى الزمن الحديث

أما الباعث الآخر فهو شيوع البحث في التطور ومذهب النشوء ... فان هذا المذهب يفسر تعبيرات الانسان عن خوالجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية ، ويتقصى وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الأحياء في هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائفه

الجسدية واستعداد هـذه الوظائف لتلبية العوامل الداخلية والعوامل الخارجية ..

ولا يسع الانسان الا أن يبتسم لتناقض النتائج التي وصل اليها أقطاب هذا المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك والفكاهة . فان العالمين العظيمين اللذين توافيا ـ بغير التقاء بينهما ـ الى تحقيق ظواهره وشواهده قد ذهبا الى الطرفين المتقابلين في تعليل الضحك والفكاهة .

فمن رأي الفرد رسل ولاس Alfred Russel Wallace أن الضحك وسائر الخصائص الانسانية التي ينفرد بها النوع الانسانى لاتقبل التفسير بالانتخاب الطبيعي وتطور أنواع الحيوان ، وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعي ملكات الرياضة والموسيقى والاحساس بما فوق الطبيعة ؟ ويعود فيقول ان ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص الانسانية ، لأنها تحتاج جميعاً الى تفسير غير تفسير الصراع على الحياة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في النوع الانساني لما كان مفهوماً كيف يتجرد منها معظم الناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم في أرقى الحضارات ، ولا كان مفهوماً كيف يتجرد منها الهمج والأوائل الفطريون كما يتجرد منها الأكثرون بين المتحضرين ، فهي كما قال في تطبيقه المذهب الدارويني على الانسان أخلق بأن تفسر بالمنحة الآلهية التي يختص بها الخالق بعض الطبائع الموهوبة ، ولن تقبل التفسير بغير ذلك ولو باعتساف شديد .

ومن رأي داروين أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلهاء وصغار الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضى والارتياح ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية ، والأصحاء من الراشدين تعتريهم حالات الضحك لأسباب غير أسبابه في الطفولة ، ويصدق هذا على الضحك ولكنه لا يصدق على الابتسام ، وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة مقابلة لحالة البكاء الذي يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب ، ولعل شيئاً من الغرابة المفاجئة مع شيء من

الشعور بالتفـوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطـر والجسامة ، فان الرجل الفقير ـ مثلاً ـ لاينتظر منه أن يضحك اذا سمع فجأة أنه كسب مقداراً كبيراً من المال ، ولكن العقل اذا هاجه الشـعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالنشاط العصبي يفرج عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشنجية الخفيفة التي نسميها الضحك.

قال في كتابه عن تعبيرات العواطف في الانسان ان الجنود الألمان أثناء حصار باريس كانوا يندفعون الى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مستر هنتون من سانفرنسيسكو انه كان يتناوبه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبي معرض لأفدح الأخطار ، وهكذا يشاهد على الأطفال الصغار وهم يهمون بالبكاء أن بكاءهم يتحول الى ضـحك حين يطرأ أمامهم طارىء غير متوقع ، مما يفهم منه أن الضحك يفيدهم في تصريف فيض الجهد العصبي الذي يحسونه على تلك الحال .

وينظر داروين الى أسلوب المجاز حيث يقول القائل ان الخيال دغدغته فكرة مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال مماثلة لدغدغة الجسد ويتخـذ المثل من ضحك الأطفال و « تشنج » أجسامهم الصغيرة بفعل الدغدغة ثم يلاحظ أن القردة العليا تبدر منها أصوات مرددة في مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة الا في أمر واحد هو أن يكون الفكر في حالة راضية ، فكما ان الطفل يصيح ولا يضحك اذا دغدغه رجل غريب واشتدت عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغي أن يكون الفكر بعيداً من الجفـوّة والشعور بالاكتراث والاهتمام ، وتحدث الدغدغة الجسدية في المواضع التي لاتتعرض كثيراً للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفاً قبلها ، وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبـدو ان عنصر الطروء أو المنافرة الذي يجري في سياق التفكير هو العنصر القوي في

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها احصاء دقيقاً في تتابعها على حسب الرخاوة أو العنف في الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله يتخذ تعبيراً واحداً في حالتي الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابيين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثرهم بأنواع الاحساس ، فانهم يتراوحون بين الضحك والبكاء في الوقت الواحد وينتقلون من الشعور الى نقيضه لأنهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الأطفال في هذه الخصلة ، لأنه رأى في جزر ملقة نساء يبكين اذا أغربن في الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الأصلاء فقال انهم يقفزون ويصفقون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال ان الاستراليين والأوربيين يتشابهون في ضحكهم جميعاً من رؤية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية في جزيرة سيلان أناس لايضحكون لمنظر قط من المناظر المضحكة — فيما رواه هارتشورن Hartshorne — لأنهم يقولون اذا سألوا مستغربين : وما الذي يدعو الى الضحك في هذا أو ذاك ؟ .. الا أن الابتسام والضحك في جميع الأمم يجريان في مسلك واحد فلا يستطاع وضع الحد الحاسم في الحركات أو المعاني بين دواعي الضحك ودواعي الابتسام ..

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعبيرات الانسانية والحيوانية أنه يتجه بمراقبته الى العوارض الجسدية التي تعم جميع بني الانسان وقد تعم بعض الحيوان في بعض الأحوال ، والعوارض الجسدية أدق لديه من العوارض الأخرى التي لايسهل ضبطها وتعميمها ولا يسهل كذلك تعليلها بالانفعالات المشتركة بين الناس من جانب وبين الناس والأحياء العليا من الجانب الآخر ، وهو على خلاف زميله في مذهب النشوء والتطور ، — الفرد ولاس — موكل بالتعميم والأشباه الشائعة دون تلك الملكة الخصوصية التي يرى صاحبه أنها مزية محدودة لايفسرها تنازع البقاء

كأنها ملكة الادراك الرياضي والبداهة الموسيقية وما اليها . فبينما يهبط داروين الى عوارض الضحك التي يقل فيها التفكير كضحك الأطفال والعصابيين والقبائل الفطرية — يرتفع ولاس الى ملكة الفكاهة العالية التي يمتاز بها آحاد من النوابغ قلما يزيد عددهم على عدد العباقرة الذين يكشفون خفايا الحقائق الرياضية ودقائق النسب الموسيقية ، ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويدركونها بعقولهم وبصائرهم فلا يتيسر للكثيرين أن يجاروهم على فهمها وادراكها .

والنزعة الوجدانية هي سر الاختلاف في النظرة الى المضحكات بين العالمين الكبيرين . فداروين يبحث عن وحدة الأنواع الحيوانية فيهبط الى مواطن الشبه بين أرقى الأحياء وأقل الناس ويعقد الصلة بين هؤلاء وهؤلاء بوحدة العوارض الجسدية التي تصاحب الضحك من تأثير الدغدغة أو تأثير المشاهدات الحسية ، ويعنيه أن يراقب عوارض الدغدغة في القردة التي تتأثر بعض المواضع في أجسامها باللمس المفاجيء على غير المألوف ..

وكل هذا لايفسر الملكة التي يعنيها زميله ولاس ويعلو بها الى الطبقة التي ينفرد بها الآدميون بل ينفرد بها آحاد من الآدميين ، لأن نزعته الوجدانية تتجه الى الايمان بالروح الآلهي ومزاياه التي يفيضها على الأرواح الانسانية كلما تهيأت لها بهداية السماء .

ولم يزعم داروين أنه فسر الضحك كله واستوعب الكلام في أسرار المضحكات على اختلافها ، وانما أراد منها ماتثبته التعبيرات المحسوسة وتطرد فيه الملاحظة اطراداً يقبل التعميم .

ويقال هذا أيضاً عن الفلاسفة الذين درسوا الضحك من ناحية علم الذوق أو علم الجمال . فانهم تناولوه من وجهة المقابلة بينه وبين الأحاسيس الجميلة أو الجليلة أو المقدسة ولم يستوعبوا أصوله وتفريعاته في دراسة مستقلة تحيط به في معانيه الفنية ومعانيه الحيوية .

فخلاصة رأي كانت Kant ان الضحك ينشأ من التوقع الذي ينتهي

فجأة الى غير طائل ، وخلاصة رأي شوبنهور أن الضحك في جميع الأحوال نتيجة للمفاجأة بادراك عدم التناسب بين الشيء المضحك والشيء الذى يخطر على البال أنه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين في الجميل والجليل عامة أن المضحك هو النزول بالجليل — أو الوقور — فجأة الى الابتذال والاسفاف ، وأنه في جملته نوع من الحطة Degradation يسرع الذهن في الالتفاف اليه ..

وليس من اليسير أن نستقصي هنا كل ماقيل في تعريفات الضـحك وأسبابه ، فان الجمع الذي يدل على طائفة قليلة من نماذج التفكير أجدى من احصاء التفصيلات التي تتبعثر بغير رابطة بينها تدور على محور معلوم ..

ونرى أننا قد نستغني عن تتبع الآراء المبعثرة في تعليل الضحك اذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هي رأى سبنسر العالمالانجليزى وبرجسون الفيلسوف الفرنسي وفرويد الطبيب النمسوي صاحب مذهب النفسانيات الحديث .

فرأي سبنسر رأي عالم نشوئي يفصل رأي داروين وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية .

وبرجسون فيلسوف ينظر الى الوجهة الاجتماعية ولا يهمل الوجهة الفنية ، وان كان يوجزها ولا يستقصيها .

وفرويد ينظر الى الدخائل النفسـية مع ارتباطها بالمجتمع وعلامات الصحة والمرض في الآحاد.

وقلّ أن يوجد رأي في الضـحك لايلتقي بهذه الآراء في جزء من الأجزاء ..

ثلاثة آراء في الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :

The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله ، ويؤخذ منه أن الباحث أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التي تستدعيها ..

وفكرته تشابه فكرة داروين في أساسها ، ولكنه يخالف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل ، ويخالف القائلين بأن الضحك يتولد من الشعور المفاجيء بالغبطة والرضى عن النفس بما يوحي اليها من السلامة أو الرجحان.

ويقول سبنسر أن هذا كله قد يحدث ولا يحدث معه الضحك ، وأنه لابد لتمام العوارض جميعاً من النحول المفاجيء من سياق الى سياق في وجهة الشعور ..

يشتغل الموسيقي بتوقيع قطعة من ألحان موسيقى بيتهوفن مثلاً فيعطس أحد الحاضرين عطسة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع ، فيضحكون.

ليس في الاستماع الى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه النفس بالضحك ، ولكن الذي حدث أن العطسة غيرت مجرى الشعور أو حبسته عن المضي في طريقه المألوف ، فتنقله هذه المفاجأة من أعصاب الحس الى العضلات ، ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال.

ويقف العاشقان على المسرح يتناجيان ويتغاضبان أو يتراضيان ، واذا بجدي يضل طريقه ويذهب الى العاشقين فيقطع عليهما وعلى النظارة هذه المناجاة ، فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى ، ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المناجاة ولم يكن فيه مايكربهم أو يحبون التخلص منه بالضحك ، وانما يغلبهم الضحك

لانتقال الشعور من وجهته المطردة ، ولابد له اذن أن ينتقل من أعصاب الحس الى العضلات .

يقول سبنسر : ولا يحدث هذا لجميع الســامعين اذا كان فيهم من يستغرقه الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والالتفات الى غيره . فان هؤلاء قد يغفلون عنه أو يغضبون لتنبيههم من الشعور الذي هم مستغرقون فيه.

ويقول سبنسر ان المؤثرات لها في الانسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وانها كلها قابلة للتحول من منفذ الى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات ..

فالرجل الذي يهرب من الخطر الداهم يجرى وتشتغل عضلاته بهذه الحركة ، ولكن هذه الحركة العضلية لاتستغرقه ولا تمنعه أن يفكر في الخطر والحيلة التي يحتالها أو العمل الذي يعمله للنجاة منه .

فاذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضرباً من الرياضة التي يتشاغل بها الانسان عن حالته النفسية ..

والطفل يصفق اذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب الى العضلات ، وربما فرك الرجل الكبير كفيه في مثل هــذه الحالة ، لأنه تعود هــذا الشعور أو تعود أن يتحول عنده الى الفكر كما يتحول الى العضلات .

ومما يدل في رأى سبنسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية انهاحركات لغير قصد أو حركات غير مقصودة بارادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التي لايريدها المقرور ..

ويتبسط سبنسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير الارادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف أمام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لا ينالى موافقتها

واعجابها ، ولو أنه وقف ليلقي خطابه امام الكراسي الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وها هنا ثلاثة عوامل مشتركة في التأثير على الخطيب : عامل الحس اذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور اذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذي يشغل الحس والشعور جانباً منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على انفراد .

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعي في المؤثرات النفسية ، وكلها تجرى في مجراها الطبيعي من الفكرة الى الحس والحركة، أو من الحس الى الحركة والفكر ، أو من الحركة الى الأحاسيس والأفكار.

غير ان الحس أو الفكر لا ينتقل الى العضل الا في غياب الحس والفكرة التي من قبيله ، فاذا كان الألم شديداً جداً يستوعب الشعور كله فهو لا ينتقل الى العضلات عند المفاجأة ، لأنه يجد طريقه في اتجاه الشعور بغير عائق يصده عن مجراه .

ويستطيع من شاء أن يحقق ذلك بمنظر يذكره أو يتخيله على وفاق المألوف من تجاربه ومشاهداته :

اذا جلس الناس في مأتم وحدثت على مشهد منهم مفاجأة مضحكة فقد يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك الصغار الحاضرون وان كانوا من أهل الميت ، ولكن الكبار المفجوعين لا يضحكون لأن شعورهم يفيض في مجراه ولا تشغله المفاجأة المضحكة حتى تنتقل من الحس الى حركة العضلات ، وربما أثارهم وأغضبهم أن يروا أمامهم أحداً يضحك وهم مغلوبون بالأسى والفجيعة .

وملاحظة سبنسر ــ هذه ــ مهمة جداً في تصحيح التعريفات الأخرى ، ومنها تعريف أفلاطون وأرسطو وغيرهم للضحك اذ يقولون انه نتيجة الشعور بالسخف أو التشويه الذي لم يبلغ مبلغ الايلام والايذاء .

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور بغير المضحكات ومتى اشتغل الشعور بشيء آخر لم يشعر الانسان بالجمال ولا باللذة ولا بالسرور ، وليس الأمر هنا خاصاً بالمضحكات دون المحاسن واللذات والمسرات .

ان المفاجأة التي تعوق الاحساس عن مجـراه وتحوله الى العضلات كافية وحدها للضحك ولا حاجة معها الى استثناء الألم ، لأن الألم استثناء لكل شعور وليس بالاستثناء للمضحكات دون سواها.

أما اذا كان الاحساس من القوة بحيث لا تعوقه المفاجأة فانه يجترفها في طريقه ولا يتحول الى العضلات ، ولا يحدث الضحك من ثم على الرغم من جميع المفاجآت.

واذا قال قائل عن جدول الماء انه يجري ما لم يعقه عائق ، فهو لا يقول لنا شيئاً عن طبيعة الماء دون غيره . فهكذا يحدث لكل متحرك انه لايتحرك مع وجود العائق في طريقه سواء في ذلك حركة الماء وحركة البخار وحركة السهم وحركة القذيفة من أقوى المدافع والراميات ..

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقال ان الضحك يحدث ما لم يمنعه الألم . فان الألم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات : يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع الفنون على الاجمال .

ويؤكد هذا ما لاحظناه آنفا على تعـريف أرسطو الذي يشترط في الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الايلام . فان الانسان البَليد لا يتألم ولا يفطن للضحك في وقت واحد ، واذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الاحساس والذهن والآخر ثقيل الاحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للضحك من ذاك لأنه بطيء الألم . بل يبطيء شعوره بالألم وشعوره بالضحك في وقت واحد ، ويغفل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلمحه ولا يحسه في درجة من الدرجات.

ومن ثم ننتهي بعد ما تقدم الى الثقة من شرط واحد في المضحكات وهو شرط المفاجأة التي تتحول بالشعور عن مجراه . فاذا كان الشعور جارياً في مجراه ــ كشعور الحزن العميق ــ فالمفاجأة لا تدفعه الى الضحك ، واذا كان في المجلس نفسه أحد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق

والاستغراق فانه يضحك من المفاجأة لأنها تستطيع أن تتحول بالمنظر ، أو المسمع ، من حس الأعصاب الى حركة العضلات .

رأي برجسون

والرأي الثاني بين الآراء النموذجية هو رأي هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي صاحب مذهب دفعة الحياة .

ورأيه في الضحك أنه فى وقت واحد تطور منطقي وحاسة اجتماعية .

فنحن نضحك اذا رأينا انساناً يتصرف تصرف الآلة ويقيس الأمور قياسا آلياً لا محل فيه للتمييز المنطقي ، ولكننا نضحك في الجماعة عامة ولا نضحك منفردين لأن الضحك تنبيه اجتماعي أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن العرف المتبع في المجلس أو في المحفل أو في الهيئة الاجتماعية بأسرها ..

والضحك عند برجسون انساني بمعاني الكلمة جميعاً ، فلا يشاهد في غير الانسان ولا يستثيرنا الضحك في غير عمل انساني أو عمل تربطه بالانسان ..

فنحن لا نضحك من منظر طبيعي أو من جماد كائناً ما كان الا اذا ربطناه بصورة انسانية ، وجعلناه شبيهاً بانسان نعرفه أو منسوباً الى عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من الانسان الذى يلبسها وتتصور هيئته فيها .

ومن شروط الأمر المضحك عند الفيلسوف أن يكون عملاً انسانياً بغير معنى ، أو يكون المعنى فيه مطرداً على طريقة آلية كأنه من أعمال الأدوات المجردة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل في جماعة أو يرتبط بالتصرف في الجماعة . فقلما يضحك الانسان على انفراد الا اذا استحضر العلاقة الاجتماعية في ذهنه ، وقلما ننظر الى أحد يضحك على انفراد الا خامرنا الشك في عقله ما لم يكن له عذر نعلمه ، فلا يزال الضحك على

انفراد محتاجاً الى اعتذار وتوضيح .

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرّف المنطقي وبالحاسة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل أبنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصنعون ..

ويفسر الفيلسوف أنواعاً كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلاً ان مرونة الحركة تهم الأطفال كثيراً فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعي ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول ان كل خلل في الحركة يضحكنا اذا قارناً بين الخلل والواقع ، وبين اللباقة التي يستدعيها تمام الخلقة والتكوين والتصرف المعهود . وكثيراً ما يضحكنا شرود الذهن لأن الانسان الذاهل ينسى عقله وحاسته الاجتماعية ويتكلم أو يعمل على غير ما تقتضيه الحالة التي هو فيها.

ويومىء الفيلسوف الى مناظر المحاكاة فيقول ان المحاكاة تضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لأنها تلفت النظر الى الغفلة أو التناقض في الانسان المحكي لأنه شبيه بالآلات ، واذا رأينا وجهين يتشابهان تشابها تاماً ضحكنا لأننا نتصور أنهما مصنوعان في قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية ..

ويضحكنا أن يتحكم الجسد في العقل والارادة تحكما غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذي تغلبه الحماسة والعطاس في وقت واحد ، ويضحكنا أن نرى أمامنا أحداً يطبق على الأحياء أحكام الآلات ، وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذي يقول للمريض أن موته باطل لأنه لم يجر على وفاق الأصول المتبعة.

ويضحكنا الرجل الذي تتكرر في كلامه لازمة محفوظة نتوقعها فنضحك حين نسمعها .

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالانتباه اليه ، لأنه يرجح رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة في الضحك.

فالرجل الذي يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما ننتظره منه فلا

يقال اذن انه يضحكنا بالمفاجأة ، بل يصح فيه رأي برجسون وهو الرأي الذي خلاصته أن المضحك من أعمال الانسان هــو الذي ينساق فيه انسياق الآلات .

***

ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء في أثناء تلخيصه ، وقبل الانتقال الى التعقيب الأخير عليــه ، لأننا نحب أن ننتهي الى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس ودواعي الاطالة في المناقشة والتمحيص .

والمثل الذي يجب الانتباه اليه من أمثلة برجسون يرجح رأيه على رأي القائلين بالمفاجأة لأول وهلة ، ولكنه لا يلبث أن يعود بنا الى القول بالمفاجأة من جانب آخر .

فمشابهة الآلات هي في ذاتها مفاجأة مستغربة من الآدميين العقلاء . ولهذا يتفق القولان ولا يتناقضان ، ويجوز أن يقال ان المفاجأة ومشابهة الآلة شيء واحدة ، وان مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لا يستوعبها ولا يمنع الضحك من غيرها .

وأما الضحك من تكرار اللازمة التي تنتظرها فهو لا يدل قطعاً على نفي المفاجأة أو على الضحك من الشيء لأنه منتظر ... بل هــو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبتسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده ونتملاه من جديد ..

وهذا المثل ــ بالذات ــ أصلح الأمثلة لتوضيح الحقيقة في هــذا الخلاف ..

فاللازمة المتكررة لابد أن تتكرر حتى تصبح لازمة ملحوظة وحين نبدأ بالاستماع اليها لا نلاحظ أنها لازمة تعاد في مناسبة وفي غير مناسبة الا اذا سمعنا صاحبها يتكلم في مسائل شتى ويعيد لازمته على اختلاف هذه المسائل وتناقضها ، ومتى ثبت لدينا أنها لازمة وانتظرناها فانمــا نحن نستعيد ضحكاً سابقاً ولا ننشيء الضحك لأول مرة ، ويصدق على هذا

النوع من الضحك أنه من قبيل استعادة المناظر التي سبق لنا أن ضحكنا منها وأحببنا أن نتملاها ونرجع اليها حينا بعد حين.

***

ونستطرد بعد هذا في سرد الأمثلة المتعـددة التي ينطبق عليها رأي برجسون ، ومنها غير ما تقدم مثل الشاطر الذى يُغلب بالشطارة ، أو مثل الفخ الذى يقع فيه واضعه ، فان هذا الشاطر — على شطارته — يتصرف كالآلة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه بالاحتراس منه ·

وهذا المثل — كالمثل السابق — يمكن تفسيره برأي برجسون ورأي القائلين بالمفاجأة معاً . لأننا نتوقع من الشاطر أن يغلب غيره بالحيلة ونشعر بالمفاجأة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع به الناس.

ويعلل برجسون ضحك الكثيرين من النكتة الجناسية بأنهـا تحول الذهن من المعنويات الى الحسيات . لأن الكلمتين المتجانستين تتشابهان في اللفظ وتختلطان في المعنى . فيتصور السامع الحركات الجسدية وهو يفكر في المعاني الاخلاقية أو الذهنية ، وهذا الضحك يشابه الضحك من الخطيب الذي تأخذه الحماسة لفكرة من الأفكار ثم يغلبه العطاس .. فانه في هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية ويتصرف على الرغم منه كما تتصرف الآلات.

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن بكلمتين متجانستين احداهما مادية والأخرى معنوية ، وتلحق بالجناس كلمات الكناية والاستعارة والمجاز وسائر الكلمات التي تواجه الذهن بصورتين احداهما لائقـة بالانسانية والأخرى غير لائقة ، كأن يقال عن أحد انه من أهل اليسار ، أو انه فنان ، أو انه جبل ، أو انه طويل الباع.

والحاسة الاجتماعية عند برجسون أعم من جميع الأسباب . فالضحك اذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح الخطأ في معاملة الجمـاعة ، وهو يتناول الاخطاء التي لا تبلغ حد الاجرام لأن المجتمع يعالج هذه بالجزاء القانوني أو بالانتقام ، ويتناول الاخطاء التي ينبو عنها الذوق كل النبو

مع سوء النية لأن المجتمع يداوي هذه بالنفوو والاشمئزاز وانما يكتفى بالضحك من الاخطاء التي يسهو فيها الانسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة .. فهذه الأخطاء يكفي في التحذير منها أن يتعرض صاحبها للضحك وأن يكون هذا الضـحك عقوبة على قدر الاسـاءة العارضة ، فيحسب في هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذي يحمي المجتمع من الجرائم والاضرار الجسام .

بل يكاد يكون الضحك عقاباً اجتماعياً خفيفاً لمن يدينون بالاحكام الحرفية ويطبقون القواعد في دقة وصرامة توحي الى الذهن أن الذي يطبقها آلة لا تفكر ولا تحس بما تصنعه ولا تفرق بين جزاء وجزاء وتقدير وتقدير ..

ففي هذه الحالة يكون الضحك تصحيحاً للاحكام المبالغ في « دقتها الحرفية » لأنها صفة آلية لا تليق بالقياس المنطقي والتقدير السليم .

وزبدة الأمثلة جميعاً في رأي برجسون تلخص أسباب الضحك في حماية المنطق الانساني وحماية الحاسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هبط الانسان من مرتبة التصرف المنطقي الذي يناسب علاقاته الاجتماعية كان ذلك مثيراً للضحك منه لتنبيهه الى تقصيره ، على شريطة الوقوف بهذه الاخطاء عند حد لا يبلغ الاجرام ولا يدخله سوء النية ، بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف ، فيرتد الى الحركة الآلية التي تتجرد من المقصد في جميع الحركات .

رأي فرويد

بقي من الآراء النموذجية رأي سيجموند فرويد Freud الطبيب النفساني صاحب المذهب المشهور الذي شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى أصبح حديث الوعي الباطن والعقد النفسية ومركب النقص وما اليها من أحاديث الخاصة والعامة وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير خفايا النفس البشرية في مسائل الاخلاق والعـادات والبواعث الفردية والاجتماعية ..

وقد أفرد الطبيب النفساني رسالة مسهبة للكلام على النكتةومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه بينها وبين الاحلام والرؤى في الوظيفة التي تؤديها للفرد وللجماعة ·

وزبدة رأي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي يلجأ اليه الانسان في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع.

والناس يقولون عن الرجل انه يمزح أو يتقولون عنه انه يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المؤاخذة ولا يريدون الجد معه في المحاسبة والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الاماني التي تفوته في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى ، فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صعوبة واحدة وهي تيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة ·

وقد أورد في رسالته أمثلة كثيرة سنشير الى بعضها ونكتفي هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التي تساوى الاحلام في رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه اذا جد في القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان في معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر الى الفجوة التي بينهما : ها هنا متسع لصورة السيد المسيح .

وسمع الواقفون كلمته وعلموا انه يقول عن صاحبَي الملايين أنهما لصان ، لأن القصة المسيحية تقول ان السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضاً أنه يعنى أنهما يستحقان الصلب كما استحقه أولئك اللصان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ما قيل فلم

يجدا سبيلاً الى مؤاخذته أو رفع أمره الى القضاء ، ولعلهما لو فعلا لاتهمهما الناس بالجلافة وجرّا على نفسيهما من السخرية ما كانا في غنى عنه ..

ويريد فرويد منا في هذه النادرة وأشباهها أن تتخيل قائل النكتة وهو يحلم ويعزي نفسه عن الحرمان من الثراء . فانه سيخلق في منامه قصة يتمثل فيها صاحبي الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين الى ساحة القضاء أو مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة في ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران عن باعث واحد لغاية واحدة .

ويسرد فرويد انماطاً من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والاجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تعليله بسهولة أو ينطبق في صعوبة وتعسف .

وهذه انماط منها ننقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النوادر التي تروى عن قرهقوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهي بين الناس على تباعد الاقطار والاجناس.

يروى في بعض قرى المجر أن حداداً اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت، فحار قاضى القرية فى أمره لأنه الحداد الوحيد في القرية ولا تستغني عنه بغيره اذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتدى بعد التفكير الى حل المشكلة باعدام الطرزى بدلا منه لان القرية فيها طرزيان !

ومن الأقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هايني في امرأة يعيبها في قالب الثناء فيقول انها تشبه تمثال الزهرة « فينوس » .. لأنها مثلها عتيقة جداً ، ومثلها بغير أسنان ، ومثلها في البقع البيضاء على على بشرتها الصفراء .

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجوه انه يشبه جميع العظماء ، فهو كالاسكندر ينحرف رأسه الى جانبه ، وكيوليوس قيصر يكمن شيء فى شعره على الدوام ، وهو يفرط في شرب القهوة

افراط ليبنتز ، وينسى الأكل والشراب اذا جلس على المائدة كأنه اسحاق نيوتن ، ويحتاج كما يحتاج اسحق نيوتن الى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون ، ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت .

ومن نوادر فرويد عن اليهود ــ وهو يهودي ــ أن يهودياً رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « انني أستطيع أن أذكر لك الصنف الذي أكلته بالأمس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم : « انك أكلت فولاً » .. فسخر منه آكل الفول وقال : « كلا . انك غلطان يا هذا ،فانني أكلته أول أمس » !

وتلاقى يهوديان في القطار فسأل أحدهما الآخر : « الى أين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « الى كراكاو » فغضب السائل وعاد يقول : لماذا تكذب عليّ ؟ .. انك تعلم انك اذا قلت لي انك ذاهب الى كراكاو فهمت أنا أنك ذاهب الى لمبرج .. ولكنني أعلم في هذه المرة انك ذاهب حقاً الى كراكاو .. فلماذا هذا الكذب ؟ »

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوباً يعتمد على اللعب بلفظة واحدة تجعل من هدفها أضحوكة سهلة ، ومن قبيل هــذه النكات قول مزاح مشهور : « ان فلاناً له مســتقبل عظيم وراءه ! » .. وقــوله عن وزير زراعة أخفق في عمله فعاد الى حقله : « انه عاد الى مكانه امام المحراث » !

ويذكر أسلوباً يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف مراميها ، كما قيل عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجال الجيش : « انهــا تذكرنا بدريفوس ، لأن الجيش لا يصدق ببراءتها. »

ويذكر المغالطة في الجواب ، ومن قبيلها ان رجلاً قصـــد الى أحـــد المحسنين وأفهمه انه في عسرة شديدة وأنه يحتاج الى قرض يسير للنجاة من كارثة محققة ، وبعد اعطائه القرض بساعة رآه المحسن اتفاقاً في مطعم من مطاعم الطبقة العليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال له مؤنباً : « أهكذا تنفق المــال الذي تستعيره للضروروات لتــأكل به الصــحاف

الفاخرة ؟ » فأجابه المحتال وكأنه دهش من سؤاله : « عجبا لك ياسيدي ! متى تظنني آكلها : ان كنت لا آكلها مفلساً ، ولا آكلها وفي يدي ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس في احدى القرى مولع بالشراب لم يزل يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الاسر ونفر منه تلاميذه . فنصح له صديق قائلاً : « انك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية جميعاً لو تركت الشراب ، فلماذا لا تحاول وتجرب ؟ » فأجابه المدرس السكير :«على رسلك يا هذا .. انما أعطي الدروس لأجد الشراب فهل تراني أترك الشراب لأعطي الدروس ؟ »

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل في تفاهة الحياة : « انها نصفان نقضي نصفها الأول متطلعين الى الثاني ، ونقضي نصفها الثاني متأسفين على الأول ! »

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسي الذي كتبها يوجه فيها الخطاب الى الأجيال المقبلة ، فعقب عليها قائلا : « هذا خطاب لا يصل الى المرسل اليه.»

وللاجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد ، وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح في أرجاء ملكه فلمح شخصاً يشبهه كل الشبه ، فسأله :

ــ أكانت أمك تعمل في بيتنا ؟

فأجابه الشبيه الجريء :

ــ كلا .. بل كان أبي .. !

وكان بعض الوعاظ الامريكيين ينادي بحقوق السود في بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

ــ لم لا تذهب الى كنتكي حيث يقيم أصحابك ؟

فسأله الواعظ المسئول :

ــ ألست يامولاي تعمل لانقاذ الارواح من النار ، فلماذا لا تذهب الى جهنم ؟

ويتخلل الأمثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس اللفظي الذى لا ينقل من لغة الى لغـة ولا حاجة الى نقله لكثرة هـذه الفكاهات الجناسية في اللغات جميعاً ولا سيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات الى ثلاثة أقسام : النكتة Wit والهزل Comic والدعابة humour .

وكلها مما يفسر عنده بالقصد في القوى النفسية ، ولكن النكتة قصد في العاطفة التي يكلفنا كبتها الكثير من مجهود النفس ، والهزل قصد في الفكر والمنطق ، واما الدعابة فهي قصد في الاحساس ، واننا نتطلب هذه الأفانين جميعاً بعد سن الطفولة التي لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج الى الدعابة لتشعر بالسعادة ..

***

والى هنا يبدو لنا أن الامثلة التي استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره في جميع الاحوال ، وان القصد في الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحياناً ولكنه لا ينشئها ولا هي متوقفة عليه .

ولنرجع الى نادرته عن اليهودي الذى قابل زميله في القطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه الى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنه كان سيذهب فعلاً الى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية في اجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد في هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة في المقال أو الاتهام ، ولكنها تضحك السامع لأنهـا تفاجئه بغرابة اللوم لهـذه المناسبة ، فان السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أن الكذب في عرف المتحدثين هو الجهر بالصدق الصراح ، ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة في جميع النوادر التي استشهد بها فرويد من المغالطات أو التحريفات أو الاجوبة المسكتة ؛ وليس في الجواب المسكت قصـد في الشعور أو القول ، ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من احراج

المسئول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج اليه.

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأي برجسون ورأي فرويد لا يناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين في كتاب التعبيرات وفصله سبنسر في مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لا يغنيان عن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لأن نتيجته هي أن يتأثر الجسد به على النحو الذي ذهب اليه سبنسر وداروين من قبل.

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه الى العضلات ويبدأ الاثر في أسهل هذه العضلات حركة ثم يسري الى غيرها من عضلات الجسم كله اذا اشتد الباعث على الضحك .

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون اننا نضحك من الانسان اذا تصرف في حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء . فان هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من انسان عاقل تجري أعماله على حكم المنطق الفطري الذي طبع عليه الانسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقي بعبارة أخرى . فنحن ننتظر عملاً منطقياً فنرى أمامنا عملاً آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر ، وهذه هي المفاجأة التي ترجع بنا الى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الانسان من النقائض المفاجئة قبل شيوع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعي لمن يذهلون عن آداب البيئة لا ينقض هذا السبب ، لأنه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات ..

ويرجع بنا رأي فرويد الى المفاجأة كما يرجع بنا رأي برجسون اليها . فان استخدام الضحك أحياناً في « الاقتصاد الشعوري » هو أيضاً من قبيل الفوائد التي يستفيدها منه وليست الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب

وليس في النوادر التي تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتغنينا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التي ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التي تخالف المنطق المألوف مفاجأة ، وتكذيب الجواب الصادق لأن الصدق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النوادر التي نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا الى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثون في الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعابة أو الفكاهه.

فاذا استرسل الناظر في تتبع هذه الفروق وجد في النهاية انها تؤول الى فروق بين أنواع الضاحكين وليست فروقاً بين أنواع الضحك في أصوله.

فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن مجراه.

ولكن السخرية التي تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هي ضحك الشرير الخبيث .

والاستهزاء الذي يتعالى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذي غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور ، أو هو ضحك العابث الذي يستخف بكل شيء ويجد الناس وهو ناظر الى جدهم بغير اكتراث.

والدعابة التي يشترك فيها الضاحك والمضحوك منه هي ضحك القلب الطيب الذي يسر نفسه ويسر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائضهم ، فلا يحسون انه يفردهم بتلك النقائض أو يأخذ تلك الهفوات مأخذ الشماتة والخيلاء .

والفكاهة التي تمثل لنا المضحكات هي ضحك الفنان أو الناقد الذى يصور لنا دواعي الضحك ويبدع في تصويرها وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضع الضحك وليس بموضوع للضاحكين .

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليست فوارق بين أنواع الضحك في الصميم ..

ومن الشائع جداً أن يقترن بالضحك شعور الغبطة بتفوقنا على الآخرين،

ولكن لا يندر أن نضحك من أنفسنا اذا فوجئنا بالهزيمة التي لا تتوقعها في موقف نظن فيه اننا نحكم الشباك لغيرنا فاذا هو قد أفلت من تلك الشباك وأوقعنا فيها .

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والأمراء حين بلغهم افلات نابليون من جزيرة ألبا وعودته الى فرنسا وهم يحسبون أنهم وضعوه في القفص وجلسوا بعده يقررون مصير القارة الأوربية من بعده .

ولو أنهم فوجئوا بنابليون يحاصرهم في مؤتمرهم ويهددهم لساعته في أرواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون في تلك الساعة.

الا أن هذا لا ينفي أن المفاجأة مضحكة ، وأن السامع البعيد يضحك منها وان لم يضحك منها الساسة والأمراء المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر القريب ، ولهذا يبقى عنصر المفاجأة قائماً في تفسير أسباب الضحك. ويختلف الأمر بحسب الضاحكين في الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، فمن كان قريباً شغله الخوف عن الضحك ومن كان بعيداً لم يشغله عنه خوف عاجل يغطي على شعوره في تلك الساعة .

ويتساوى في هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة فتنة من فتن الزهرة ربة الجمال وحاصرهم العدو المهدد لحياتهم لشغلهم الخطر عن الشعور بذلك الجمال الفتان ، ولو كانت مائدة طعام جمعت ما لذ وطاب بين أيديهم ثم حوصروا ذلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن طلب الطعام والقوت .

فلا يلزم اذن أن نقول ان الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذي لم يبلغ درجة الايلام ، لأن بلوغ درجة الايلام يعطل كل شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها .

وصحيح ـ بعد هذا ـ ان نجمل التفسيرات جميعاً فنقول ان الضحك ينجم عن مفاجأة تتحول بالفكر وبالشعور عن مجراه ، وان الاختلاف بين السخرية والاستهزاء والدعابة والفكاهة لا يلجئنا الى البحث عن اختلاف في أنواع الضحك لأنه هو في لبابه اختلاف بين الضاحكين .

الضحك في الكتب الدينية

في القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفي التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالمقدس والشعور بالمضحك في النفس البشرية .

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه في هذه المقابلة الواقعية أولى بالرجوع اليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التي تسوق العبرة من القصص والأمثال وتروي الاخبار عن الضحك والضاحكين من مختلف الطبائع والأمزجة وفي مختلف المناسبات .

وهذه الأخبار متكررة في القرآن الكريم ، وكلها شاهد محكم للعالم النفساني يركن اليه في تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرز حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه في كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة في موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه .

جاءت الاشارة الى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة ابراهيم ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة ابراهيم يقول ابراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخافهم ثم بشروه بولادة اسحاق من زوجته سارة :

« ... فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكِرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أُرسلنا الى قوم لوط.وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب.قالت يا ويلتى أألِد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب » ..

فهنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجُّب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : ان هذا لشيء عجيب ..

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم ــ تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم .

ولا تغني هنا كلمة «سُرَّت أو كلمة استبشرت أو فرحت» في مكان كلمة ضحكت . فان الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات .

***

وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » ..

فها هنا عوامل الضحك على سجيتها ماثلة في نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التي تقترن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة ابراهيم .

هنا الفارق الشاسع بين ضآلة النمل وبين ضخامة الملك الذي أوتيه سليمان ..

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة ولا يفهم عنها ما تقول ،

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر : من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي وواديها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم ..

وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء في سورة المطففين : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون»

فالضحك هنا مقترن بالتغامز الخفي ، كأنما يحسب المستهزئون أنهم يستغفلون المؤمنين الذين يمرون بهم فيسخرون منهم بالتغامز بينهم ؛ ويضحكون اذا التفت اليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يملكون اخفاء العبث والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين اذا انكشفوا وامتنع عليهم الكتمان والتمادي في الاستهزاء من وراء الأنظار.

والضحك الأخير يأتي حين لم يكن في الحسبان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فاذا بهم قد انقلب عليهم الأمر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الارائك ينظرون.

وجاء في سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملأه فقال اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منه يضحكون.»

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم اخلاف ظن موسى عليه السلام لأنهم عبثوا به وهو ينتظر منهم بعد مجيئهم بالآيات أن يؤمنوا فاذا هم يفاجئونه بما لم ينتظر من اصرارهم على الكفران.

ولابد في كل ضحك من الشعور بالمفاجأة في الضاحك أو فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات من طرفيها.

وفي سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشيها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا » .

ففي هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم بما يبكيهم فلا يحســون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من أحاديث الرســول عن نذير الآزفة المطبقة الى الأمان الذي يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين النقيضين المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : مــوقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فاما أن يحس الســامع نذير الآزفة فيبكي أو يستغربها ويستبعدها فيضحك تعجباً من كلام القائل واطمئنانه الى الأمان الذي يقال لهم انهم مهددون فيه .

والضحك من البلاء الذي لا يحسه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذي يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء في سورة التوبة عن المخلّفين الذين فرحوا بمقعدهم عن القتال: « فرح المخلّفون بمقعدهـم خِلافَ رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحـر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون.فليضـحكوا قليلاً وليبـكوا كثيراً جزاءً بمـا كانوا يكسبون » ..

وهذا الضحك أيضاً مقرون بالسماع عن الخطر مع الشعور بالأمان ، فهو ــ كما تقدم ــ كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير لا يخيف .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لانه يلازمه في معظم دواعيه ومظاهره .

وورد ذكر الســخرية والاســتهزاء ، وهمــا في أكثر الآيات بمعنى الاستخفاف والكبرياء ، أو بمعنى التردد بين حالتين : حالة ظاهرة وحالة باطنة تناقضها ، ولا يخفى أن نقل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب اضحك على اختلاف الضاحكين : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلّوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انمــا نحن مستهزئون.الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.»

وما من آية ورد فيها ذكر السخرية الا كان فيما تحتويه شعور قــوم

فارغين باجتهاد الأنبياء وندائهم في غير طائل على مايبدو لأولئك الفارغين ، ويتكرر هذا الضرب من السخرية في قصة نوح لأنه من جهة ينذر ويحذر ويتوعد بالغضب المحيق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يمرون به وهو جاهد في عمل الفلك فيتضاحكون :

« ويصنع الفُلك وكلما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه،قال انتسخروا منا فانّا نسخر منكم كما تسخرون.فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.»

وكلا الجانبين ــ جانب نوح وجانب قومه ــ فيه أمان مع خوف يتناقضان ، وفيه ثقة تناقض الثقة التي تقابلها ، فكلاهما عنده سبب للسخرية بين هذين النقيضين .

في التوراة

وقد مر بنا استشهاد الفيلسوف العبري بالتوراة عن ضحك الآله ممن يغترون بقدرتهم ويعتزمون أموراً يجترئون عليها ثم يعجزون عنها .

وهذا الشاهد مأخوذ من المزمور الثاني الذي يقول ناظمه إنه يسمع دعوى المغرورين فيضحك لأنه أخبر منهم بما يريده الرب على عرشه ، وهذا نص المزمور :

« لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب في الباطل،

« قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه . لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما .

« الساكن في السماوات يضحك .

« الرب يستهزىء بهم . وحينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما انا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي .

« انني أخبر من جهة قضاء الرب.»

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : احداهما غرور ظاهر بالقوة ، والأخرى حقيقة هذا الغرور العاجز الذي لا قبل له بما يدعيه

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مثار الضحك مجازاً بالنسبة للاله ، وحقيقة بالنسبة الى الانسان .

وجميع ما ورد في العهد القديم عن الضحك فانسا يفهم الضحك فيه بمعنى الاستهزاء والسخرية اذا كان من المنكرين ، وبمعنى الاستغراب والدهشة اذا كان من المؤمنين .

وجميع هذه الشواهد ينحي على المستهزئين لأنهم يستكبرون ولا يصدقون ، فهم يستهزئون بالأنبياء لأنهم يرونهم بأعينهم مدعين القدرة ظاهراً وعلى غير شيء في الباطن ، والأنبياء يستهزئون بهم لأنهم يرون الحقيقة معكوسة من جانبهم على أولئك المنكرين المستكبرين ، فهؤلاء المنكرون المستكبرون هم الذين ينتفخون على هواء ، ويرى النبي صورتهم المنتفخة وصورتهم الخاوية فيرى منهم تناقضاً يوحي بالاستهزاء ، ولاسيما حين يغتر اصحابه فيستهزئون بالعارفين .

ففي سفر أشعيا يقول النبي عن الأمراء والسادة : « اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ــ ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم .»

وفي الأمثال من الاصحاح الأول كلام عن ضحك الشماتة والاستهزاء يقول فيه صاحب السفر : « اني دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي ، بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، أشمت عند مجيء خوفكم »

وليس أكثر في كتاب الأمثال من الاشارة الى الاستهزاء بمعنى الكبرياء والغرور والجهالة ، ومن الاشارة الى جزاء المستهزيء وأثره السيء في قومه وحكمة تأديبه لينتفع الحمقى بعبرته ويزدجروا بالنظر الى مصيره .

قال : المستهزيء يطلب الحكمة ولا يجدها .

وقال : المنتفخ المتكبر اسمه مستهزيء عامل بفيضان الكبرياء .

وقال : اضرب المستهزيء فيتذكى الأحمق .

وقال : بمعاقبة المستهزيء يصير الأحمق حكيمًا .

وقال : المستهزئون يفتنون المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب .

وقال : الابن الحكيم يقبل تأديب أبيه والمستهزيء لا يسمع انتهاراً .

***

وكتاب الأمثال أكثر الكتب في العهد القديم اشارة الى الهزء والاستهزاء وهو تكرار يوافق طبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكمة والتجربة وهما نقيض الاستهزاء الذي يستخف صاحبه بجميع الأمور ولا يزال كذلك حتى تهديه تجارب الأيام الى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر في عواقب الأمور ، فاذا هو ينظر اليها كما قال الشاعر العربي :

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وليس في كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الاشارة الى الاستهزاء كما تكررت في كتاب الأمثال ، ولكنه جاء في بعض الكتب على ندرة واختلاف يسير في المعنى ، وكادت قصة سارة في سفر التكوين أن تنم عن ضحك بمعنى الاستغراب والاستعظام ، لأنها لا تستهزيء بالبشارة ولكنها تستغربها ولا تطمئن اليها لأول وهلة ، ولهذا يروى الاصحاح الثالث عشر عنها أنها ضحكت في باطنها وأنها أنكرت الضحك حين سمعت من ضيوف ابراهيم سؤالاً فيه شيء من صبغة الملام :

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة ، فقال اني أرجع اليكِ نحو زمان الحياة ــ اي الربيع ــ ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت ساره سامعة في باب الخيمة وهو وراءه ، وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام ، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعدَ فنائي يكون لي تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت . هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لأنها خافت ، فقال لا بل ضحكتِ.»

فالمواضع التي ورد فيها الضحك في كتب العهد القديم انما كانت تنديداً بخليقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذي يرد

الاستهزاء على أصحابه ، ومن هذا القبيل ماينسب الى الاله أو الى عباده الصالحين ..

وبهذا المعنى نسب الى أيوب حيث جاء في سفره : « لا ترفض تأديب القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويداه تشفيان ، في ست شدائد ينجيك وفي سبع لا يمسك بسوء ، في الجوع يفديك من الموت وفي الحرب من حد السيف ، من سوط اللسان ، فلا تخاف من الخراب اذا جاء ... تضحك على الخراب والمحْل ولا تخشى وحوش الأرض.»

وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحْل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا ألاّ نجاة له من مصابه بهما وبغيرهما من ضروب المحنة والبلاء.

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء في الأمثـال : « انه في الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن.» .. أو كما جاء في الجامعة : « ان الحـزن خير من الضحك لانه بكآبة الوجه يصـلح القلب ..»

ولم يذكر الاستهزاء بخير في كتب العهد القديم الا أن يكون رداً على المستهزئين وعقاباً للسخرية والمجون.

على أن الضحك قد ورد في العهد القديم بمعنى السرور مقابلاً للحزن مصحوباً بالغناء ، كما جاء في المزامير بعد رد السبي « اننا ... حينئـذ امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنماً»

ولا يلزم في هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التي أجملناها فيمـا تقدم ، ولكنه ــ على هذا ــ لا يخلو من الشعور بالنقيض بعد النقيض ، اذ ينتقل المرء من الأسر الى الطلاقة ، فيعبر عن فرحه بالضحك والغناء.

في الانجيل

أما في العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك في انجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه الى تلاميذه :

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيهـا الباكون الآن لأنكم ستضحكون.»

وهنا يأتي الضحك مقابلاً للبكاء ولا يخلو من دواعي الضحك في جميع الأحوال وأهمها تبدل الحال والمقابلة بين النقيضين.

***

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التي يقرأها المؤمنون بهـا ويقدسون ما فيها ــ خير ما يستشهد به على طبيعة الضحك في حالات متعددة ، لأن هذه الدواعي تبرز في مواضعها بروزاً واضحاً بما يقابلها من شعور القداسة ، وتنبئنا عن أناس متباعدين في الأزمنة والأمكنة والطبائع والأخلاق ، فنعلم أن الانسان انسان في كل زمان ومكان ، وان الضحك خاصة انسانية تعم بني الانسان.

الإنسانية والفكاهة

أياً ما كان القول في تعريف الضحك وتعليله ، فمن أصح الأقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك ـ كما قال برجسون ـ ملكة انسانية من طرفيها ، فلا يضحك الا انسان ، وما من شيء يضحكنا الا ان يكون « انسانياً » في صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه .

ولنا أن نقول إن الانسان حيوان ضاحك كما نقول إن الانسان حيوان ناطق ..

أفنعني بذلك أن كل انسان يضحك بلا استثناء ؟

كلا . الا كما نعني أن كل انسان ينطق ويفكر ويتكلم بلا استثناء .

فهناك خُرس لا ينطقون ، وهناك بُله لا يفكرون . وهناك صغار أو همج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الاحياء التي لا تساوى البشر في الخلق أو في الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول إن الانسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق « بالقوة » على اصطلاح المناطقة ، أو بالاستعداد العام في أبناء نوعه كما نقول في عرف المصطلحين ، وكذلك يقال إن الانسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لا تفهم الضحك ولا تدري موقعه من أعمال الناس ، ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الاعمال المخالفة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جداً لانطباعهم على العرف المتوارث الذي لا يخالفونه الا وقعوا في محظور « المحرمات » ... مع قصورهم عن المقارنة التي تتضح منها النقائض ومواطن الضحك أو الاستغراب ..

ولعل هذا العجز عن الضحك في هذا الطور من أطوار الانسانية معزز لقول القائلين ان الضحك خاصة انسانية لا يشترك فيها عامة الاحياء

فلا يضحك الانسان وهو ــ بعد ــ قريب من أطوار الحيوانية في حكم الغريزة وغلبة العادة على التفكير ، واذا رجعنا الى تفسير برجسون في هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الانسان على سنة الآلات في اطّراد العمل بغير تفكير ، فان القبائل البدائية المغرقة في الهمجية تجري كلها على هذه السنة ، ولا يكون فيها مخالفاً للمألوف الا الذي يشذ بالتصرف على خلاف الوتيرة المطردة والنهج المرسوم .

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعاً تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وان لم تعرفهما بالتفسير والتقسيم ..

ونريد بواضع الضحك من يخلقه بتمثيل المضحكات واختراعهاوحكايتها كالفنانين والندماء ..

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذي يحول شعور ناظره من وجهة الى وجهة على حين غرة على الاجمال .

الامم الضاحكة

وقد جرت عادة المعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجريد بعضها منها أو وصفها بجهلها وبطء الاحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم « الفكاهية » .

والثابت الذي لاشك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوابغ الفكاهة في جميع أجيالها ، وانها في العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على جمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحضرة لها تاريخ قديم خلت من نوابغ الفكاهة ومن آثار هؤلاء النوابغ في الآداب والفنون .

ولكننا نرى أن إحصاء النوابغ هنا لا يفيدنا كما يفيدنا دليل الأمثال التي يتداولها الناس ويتوارثونها جيلاً بعد جيل ، فان آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها

وطريقتها في التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق في جميع الأمم أو تتقارب غاية التقارب في المضامين والمرامي وان لم تتقارب في اللفظ والتركيب ..

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقترن فيها الحكمة أو تأتي فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب تمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، وتؤخذ فيه الحكمة مأخذ الجد والمزاح في وقت واحد ، لأنها تشير الى عواقب الخطل والحماقة اشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن والمناسبات ، فهي تتكلم في أمان بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكير .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال في أمتين من أمم المشرق وأمتين من أمم المغرب ، يقال عن احداهما انها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى انها لا تفطن للفكاهة وانها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجد والصراحة التي لا تعرف التورية والتلميح .

ففي المشرق أمة الفرس مشهورة بالنكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية : وأمة اليابان مشهورة بالكد والدأب والانصباب على العمل والتكليف .

وفى المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية في صفة الفكاهة والأمة الالمانية في صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمة الفارسية ـ التي يقال عنها انها فرنسا الشرق ـ تتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لأمثال هاتين الأمتين .

أمثال فارسية :

الصدق والسكر زميلان .

الحب والعطر لا يختبئان .

الخادم الجديد أسبق من الغزال .

ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف .

الذهب والحجر من معدن واحد في الصندوق .
الخائط عريان والاسكاف حاف .
الجاهل لا نفع فيه ، لاهو انسان ولا هو حمار .
يبيع الجلد قبل صيد الغزال .
من دواعي الرثاء أن تنفق الذهب في الطلاء .
لا لزوم للسمك في بركة بلا ماء .
الكلام يلد الماء والأمطار تلد الثلوج .
ما الفائدة ؟ عندما استطيع لا اعرف وعندما اعرف لا استطيع !

***

وهذه متفرقات بعددها — اثني عشر — من أمثال الأمة اليابانية في معارض شتى من حكمة الحياة :

الحب لا يميز بين « الميكاد » والفلاح .
قد ترى السماء من ثقب ابرة .
صدر الانسان أصون الصناديق لاسراره .
نصف الناس يضحكون من النصف الاخر ؛ والنصفان حمقى .
اذا تقدمت الحماقة رجعت الحكمة .
أعتى العواصف لا تثير الموج في أعمق الآبار .
ما من شجرة تحمل الأرز مطبوخاً .
لا السكير يدرى بعار الخمر ولا المفيق يدري بسلطانها .
لا يرجع الضحك بما أذهبه الغضب .
المبالغة في التحية ازدراء .
أجمل الغلال نبت في حقول الاخرين .
اقرص نفسك تعلم لماذا يصيح المقروص .

***

والأمة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة الأمم . وهذه متفرقات من أمثالها :

لا تذهب الفضيلة بعيداً الا أن يكون الغرور في ركابها .
حب الذات أبرع المتملقين .
المذنب المحبوب سرعان ما تنكشف براءته .
خيال بلا علم أجنحة بلا أقدام .
الحمقى القدماء أحمق من اخوانهم المحدثين .
البساطة المفتعلة تكلف مطلق .
لا يقول عن الحظ إنه أعمى الا الذى لا يراه .
تزيدنا السن حمقاً كلما زادتنا حكمة .
أصدقاؤنا الأعزاء يقولون كما نقول .
الحب مملكة المرأة .
للقلب منطق لا يعرفه المنطق .
الذي يحسن الحساب لا يثق في حساب .

***

وتلي هذه الأمثال الفرنسية طائفة في مثل عددها من الأمثال الألمانية ، وهذه هي :

سفينة وتدها من الذهب ترسو في كل ميناء .
ان لم تكن مطرقة فكن سنداناً .
الكيس الفارغ لا يقف مستقيماً .
بطن فارغ أشجع من رأس ملآن .
الضرير أقل عثرات من البصير .
من بدأ بالألف انتهى الى الياء .
التخمة أقتل من الجوع .
طريق الشحاذ لا ضلال فيه .
آدم وحواء أكلا التفاحة ، ونحن نطالب بقائمة الحساب .
امرأتان طيبتان في الدنيا : احداهما ماتت والأخرى مفقودة !
المرأة التي لا يصحبها أحد يصحبها الجميع .
يضحك من الندوب من لم يعرف الجراح .

وهذه اثنا عشر مثلاً من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بالجهامة . غير أننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة الموازنة بينها، ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم لأمة على أمة حين نقتبس فكاهة الأمم من تجاربها وأمثالها ، فكلها سواء في مزج الجانب المضحك بالجانب الحكيم من تجارب الحياة المتكررة ، ولاشك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بين بني الانسان من الأقوال المتفردة على ألسنة الآحاد .

***

وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعة بين بني الانسان نرجع فيه الى مواسم الفكاهة التي تعرض لجميع الأمم في حالات متماثلة ، وهي حالات التنفيس عن الحرج أو حالات التسرد والاحتجاج على البدع الشائعة ، ولا سيما البدع التي حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الأحوال.

وشعوب الصقالبة في أوربة الشرقية وأوربة الوسطى من الشعوب التي اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى في القول غير معناه الصريح الذي يفهم على وجه واحد ولا يفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات ..

الا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر في موسم الحرج لا تفضلها من نوعها نوادر الشعوب الغربية في أمثال هذه المواسم .

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من صحف أو من مجاميع الفكاهة العالمية التي تصدر من حين الى حين و سن فيها أمزجة الأمم التي تروى تلك النوادر عب على غير قصد من جامعيها :

* أرادت اذاعة روسية أن تطلع الفلاحين على أجهزة الاذاعة وأن يشترك كل منهم في ارسال الحديث الى العالم بكلمة واحدة لا يزيد عليها، فلما تقدم الفلاح الأول وسئل أن ينادي بالكلمة الوحيدة صاح بملء فيه : النجدة !

* وطاف مفتش من مفتشي الدعاية بين الفلاحين المتذمرين فقال في

بعض القرى للشاكين من قلة الطعام والكساء :

« ماذا تقولون ؟ أتشكون من أبدع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة وخرقة ، فماذا عساكم قائلين لو رأيتم الافريقيين العراة الذين لا يعرفون الخبز ولا الطعام المطبوخ في مجاهل القارة السوداء ؟ »

فحك أحد السامعين رأسه وقال :

« أظن ياحضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا الى أبدع المذاهب الاجتماعية » !

* وساح تاجر مجرى في روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذاكر البريدية الى أصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب في التذكرة الأولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب في التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب في التذكرة الثالثه : تحيات من براغ الحرة . ثم صمت شهراً وجاءت الى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر رابينوفتش !

واقترب غريب في بودابست من جندي الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطي الى النوافذ وقال له : « انها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط » ..

فعجب الزائر الغريب وفاتحه بعجبه قائلاً : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر في ساعتك ؟ »

وقال الشرطي : « هذه النوافذ المغلقة في هذه اللحظة دليل على ميعاد الاذاعة الاجنبية » !

* واجتمع ثلاثة مساجين في أحد المعسكرات فقال أولهم همساً : أنا هنا لأنني متهم بمشايعة راداك ، وقال الثاني : أنا هنا لأنني متهم بتأييد راداك ، وقال الثالث : أنا هنا لأنني راداك.(١)

وقد نقلت عن الألمان في أيام هتلر حكايات يتداولها الشعب الألماني من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجْر أو على البدع الاجتماعية

(١) Laughter incorporated

ونختار حكاية من كل منها تنبيء عن سائرها.

فمن حكايات التمرد على الحجْر وسوء الحال أن رجلاً ضاقت به الدنيا فعول على الانتحار واشترى حبلاً ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت، لأن الحبل «ارساتز»، أو تقليد صناعي .. فاشترى سمّاً من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لأن السم «ارساتز» أي تقليد صناعي للمواد التي تصنع منها السموم .. واشترى مسدساً وأطلقه على نفسه فلم يمت لأن المسدس والرصاص كله «ارساتز» لا يميت .. فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها، وذهب الى مطعم أكل فيه وشرب وأفرط في أكل اللحوم وشرب الجعة تعويضاً لما فاته من متعة الحياة في اليومين السابقين.

فمات في هذه المرة، لأن الطعام والشراب «ارساتز»!

وشاع بين الفتيات زي الملابس القصيرة التي تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان، وعاد أحد الأزواج الى بيته في بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له: أتدري يافلان! انهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط، وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستاناً يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة.

فنظر الزوج الى امرأته التي كادت أن تبدو أمامه بغير كساء، وقال وهو يظهر الموافقة على مضض:

ـ أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان!

النوادر القرقوشية

ان الاستعداد لتاليف الفكاهة التي تنفس بها الأمم عن صدورها في أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الأمم ومنها ـ أو في مقدمتها ـ الأمم التي لم تشتهر بالنكتة واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها ..

ونقول إن هذه الأمم في مقدمة الأمم التي تؤلف النكات في هذا الغرض

لأنها فى الغالب هي الامم التي تبتلي بالحرج وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد في العصر الحاضر نظير لهذه النوادر في الأمم التي تملك حرية النقد وتجهر بآرائها في حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوربية في هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لا تتساوى في ظروفه ودواعيه ، وانما تستطاع المقارنة بين النكات المتقدمة والنكات التي شاعت في مصر على عهد « قرهقوش » ودونها « ابن مماتي » في كتابه المسمى « الفاشوش في حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هي مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل في طي الكتمان الى حين ..

واحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير في النوادر التي استشهد بها فرويد وهي نادرة الحداد المحكوم عليه بالموت.

قيل إن غلاماً لقره قوش قتل نفساً فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : انه حدادك ينعل لك الفرس ويخدمك ، فان شنقته لم تجد غيره ، فنظر قرهقوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفّاص فقال : هذا القفّاص لا حاجة بنا اليه ، فاشنقوه في مكان الركبدار ، وهي وظيفة الغلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجري النوادر « القرقوشية » التي أثبتها « ابن مماتي» في كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

* ومنها نادرة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حيًّا ليدفنوه وهو يصيح في النعش مستغيثاً بقره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يمضون به وقال له : ويحك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

* وقيل إن قره قوش نشر قميصه فوقع القميص من الحبل ، فتصدق بالف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت .

* وقيل إن جندياً نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهي حامل في سبعة أشهر . فصدمها الجندى وأسقط حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده الى قرهقوش ، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة

ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها الى زوجهـا الا وهي حامل في سـبعة أشهر ! ..

* وشكا اليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به الى صـاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالي الوفاض لا يملك السداد ، فأمر قرهقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل ..

* وكان لقرهقوش باز يصيد به فطارالباز ولم يعد اليه ، فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز اليه اذا أغلقت جميع الأبواب !

* وشكا اليه الفلاحون برداً أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن القطن انما أصيب بالبرد لاهمالهم وقلة درايتهم ، ولو زرعوا معه صوفاً لما أصابه التلف من برد الشتاء !

***

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركي في عصر المماليك وبعد عصرهم الى أيام الخـديو اسماعيل ..

* ومنها أن حاكماً تعود أن يقترض مالاً من بعض الصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها اذا جاءه في الموعد مطالباً بحقه . ولا يزال يقترض ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد الى الديون القديمة حتى يئس الصيرفي من سداد جميع الديون ، فلما استدعي الصيرفي بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليهـا .. ليسهل عليه ابتلاعها في موعد السداد .

* ومنها أن والياً كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذراً في تأخيرها .. ولا يزال يقول لمن يعتذر بقلة المال :

ـ ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالاً .. ؟

وعلم القوم من تكرار هذه « الأربعين » ان الرجل يملك أربعين ريالاً فلا يصدق أن أحداً لا يملكها مثله ، ونقبوا دفائنه حتى عثروا بالثروة المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب الوالي بعدها أحداً يماطل في الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

ــ من أين لك أربعون ريالاً يامسكين ؟.. أنا لا أملك ريالاً واحداً من الأربعين ..

* ومنها أن والياً كان يصلي في أخريات أيامه ويتبع الصلاة بالدعاء والنحيب ويسأل الله أن يكفّر له ذنوبه لأنه قتل أربعة .

وسمعه زميل له فأدهشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير وينحب هذا النحيب من أجل أربعة قتلهم وهم في حسابه عدد غير كبير ، فقال له كأنه يؤنبه :

ــ ألم تقتل في حياتك غير أربعة يا آغا ؟

قال : « لا يا صاحبي .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر » !

وأشباه هذه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تُربي على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قره قوش ، وهي جميعاً من تأليف أمة مشهورة من قديم الزمن « بالقفش » والنكتة السريعة ، فاذا قوبلت هذه النوادر بنوادر الأمم التي لم تشتهر بالفكاهة في أوربا الحديثة ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وانما تزيد النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة ، وسبب هذا الفارق أيضاً راجع الى الظروف الاجتماعية لا الى طبيعة الضحك في النفس الانسانية ، فان الحاكم الذي تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلا ضير من اتهامه بالغفلة والبلاهة واعتزاز المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراية، ولكن هذا الاعتزاز في أوربا الحديثة يصيب المحكومين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة في النكتة هنا الى أكثر من

التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام .

فكاهات عهود التحول

وأتم من هذه المواسم الفكاهية التي تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة في حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتي هذه الفكاهة في أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبري لها نابغ ملهم في فن النقد الفكاهي يجسمها في « شخصية » مخترعة يجعلها هدفاً للسخرية والتسخيف أو يعمد الى شخصية خيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتكلف والتقاليد الخاوية التي تتخلف بعد أجيال عدة في أعقاب العهود الدائلة التي آذنت شمسها بالأفول.

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك واشباع البطون والشهوات في القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسى رابليه Rabelais (١٤٩٤ ــ ١٥٥٣) فمثل ملوكه وأبطاله في شخصيتين خالدتين أحداهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذي يلتهم الآدميين والأنعام نهماً ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والأخرى شخصية بكروشول Picrochole الذي ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شيء غير العتوّ والطغيان.

وليس أدل من اصطحاب هذه المساويء في العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم في سورة الفجر حيث تنعى دول التبابعة والفراعنة والجبابرة جميعاً في أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » الى قوله تعالى : « بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضّون على

طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حبّاً جمّاً »

وهذه المفاسد التى جمعتها هذه الآيات هى بعينها مفاسد العهد الذى يمثله جارجنتوا فى النهم ويمثله بكروشول فى الفتك والعدوان ، وكلاهما بعد ذلك باغ نهم على زيادة البغى فى أحدهما وزيادة النهم فى الآخر

***

ومن العهود المتحرلة عهد الفروسية فى القرن السادس عشر بين نبلاء الأسبان على الخصوص ، فان هذا العهد قد شاخ وشاه حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقاياها ، وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسبانى من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervantes صاحب كتاب دون كيشوت الذى تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة ما يكاد يسلكه في عداد الكتب العربية، ولم يكن ذلك عبثاً أو لغواً بل كان من تمام التعبير عن العهد الآفل لأنه وافق شيوع التقاليد العربية بين الأسبان وأمم القارة الغربية

ويعاصر هذه العهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذي فشا بين الولايات الالمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم انهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق ، وتمثلت ألاعيب هذا العهد فى شخصية القروى أُولنسبيجل Eulenspiegel الذى كان كالمسخ المشوه في تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال انه عاش فى برنزويك وان توماس مورنر Murner (١٤٧٥ ــ ١٥٣٠) الذي جمع نوادره بعد ذيوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب اليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف

ثم جاء الكاتب البلجيكى شارل دى كوستيه Charles de Coster (١٨٢٧ ــ ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحاً فلمنكية مرحة كادت أن تجعلها نموذجاً للطبيعة الفلمنكية فى سذاجتها التى آذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

وخاتمة المطاف في هذه المواسم الفكاهية كتاب « أعاجيب البارون

منشهاوزن » الذى ألفه الكاتب الألمانى رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها فى القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته فى الجيش الروسى يصدع الأسماع بأخبار البطولة التى يرويها عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التى امتاز بها فى وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والامراء ، ومنهم أمراء المشرق فى الآستانة والقاهرة

تلك الشخصية الواقعية هى شخصية كارل فردريك منشهاوزن (١٧٢٠ ــ ١٧٩٧) نموذج المفاخر المدَّعاة بين عصر السيف وعصر البندقية والمدفع ، واحدى أعاجيبه انه نسى النار التي يشعل بها البارود فأوقد زناد البندقية بضربة على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص .... واحدى هذه الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التى أطلقت عليها فعادت به أدراجها الى حيث أراد ، وكانت أعاجيب منشهاوزن هذا خاتمة العهد الذى راجت فيه أباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبارالسياحاتوالرحلات مما يصدقه العقل أو لا يقبل التصديق

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبلجيكا وتقبلتها الأمم من المغربيين والمشرقيين حيث تداولتها أيدى القراء بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلها وبطء الالتفات اليها ، ولا يسع الناقد عند المفاضلة أن يرجح النكتة فى احداهما على النكتة فى سواها ، فربما كان بعض النكات في أعاجيب منشهاوزن أبرع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت النكتة الأسبانية أحيانا أبرع من النكتة الالمانية ، وعامتها من نسق واحد وطبقة واحدة تؤدي رسالتها في مناسباتها وتسجل الحقيقة التى أسفرت عنها المقابلة بين الفكاهات القومية ودلت على ان الضحك ــ كالمنطق ــ مزية انسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الانسان ، وأن اختلافها انما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافاً بين الطبائع والأصول

على أن طبائع الانسان العامة لا تمحو الفوارق بين المجتمعات في مواقعها المتباينة ، ولا تمحو الفوارق بين المجتمع الواحد في الأزمنة المختلفة والاحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعي أن تكون الأمة الوادعة كالأمة الكادحة ، أو الأمة الغنية كالامة الفقيرة ، أو الامة التي طال عهدها بالحضارة ومؤنساتها كالأمة التى تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تتشابه في الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم والشدائد وأمة لم تتمرس بها الا عرضاً في الآونة بعد الأخرى.

فمهما تتفق طبائع الانسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبغة القومية في الجد والفكاهة ، وفي العلم والعمل ، وفي التفكير والذوق ، وفي الضرورات والكماليات ..

فوارق الامم في الفكاهة

ونحن في هذه الرسالة نجمل القول في أصول الفكاهة لنستطرد منها الى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة اليه في الأمم التي عرفته وتمثلت بحكاياته ، وهي الأمة العربية والأمة الفارسية ، والأمة التركية . وكادت هذه الأمة ــ أي الأمة التركية ــ أن تستأثر به في معظم نوادره حتى قيل ان جحا المشهور اليوم انما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة التركية تنقطع الصلة بينه وبين جحا القديم الذي عرفه العرب في أمثالهم ورجع به التاريخ الى صدر الاسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد.

وأياً كان منشأه من الأمة التركية فهناك « جحا » تنسب اليه الحكايات في اللغة العربية واللغة الفارسية ، فاذا عنينا بفوارق الأمم في الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا في هذه الرسالة أن نستقصي الفوارق في جميع الأمم ولا حاجة بنا الى أكثر من تمييز الفوارق في خصائص الفكاهة بين السليقة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربما أعانت هذه الفوارق على اسناد الحكايات الى كل أمة من هذه الأمم حسب سليقتها الغالبة عليها ، ولا يكون هذا الاسناد بعد كل محاولة في ميسورنا الآن الا على سبيل الترجيح والتقريب دون الجزم والتوكيد . ونحن في هذا

كمن يقول ان فلاناً عربي لأنه أسمر فيقول شيئاً يستحق أن يقال لأنه لايستحق أن يهمل ، ثم لايجاوز هذا الحد الى توكيد النسبة مع احتمال وجود البشرة السمراء أو المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء .

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع أن نميز سليقة الأمة في عامة شؤونها ثم غير السليقة التي تنتظر منها في معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهية نسخة من الصورة المحسوسة مبالغ فيها على مثال المبالغة في هذا الضرب من التصوير المشهور في اللغات الأوربية باسم الكاريكاتور ... وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغوي في جميع الأمم قبل أن يوجد بالخطوط والرسوم .

فمن الوصف الصادق لسليقة الأمة العربية أن نقول إنها أمة شعرية منطقية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة الفارسية أن نقول إنها أمة صوفية دبلوماسية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة التركية أن نقول إنها أمة عملية واقعية ..

والى أين تنتهي المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق ؟

تنتهي الى الوهم والقياس مع الفارق أو مع الفوارق الكثيرة .

أما المبالغة الكاريكاتورية في السليقة الصوفية فقد تنتهي الى المحال والمحاولة ، واما هذه المبالغة في السليقة العملية الواقعية فقد تنتهي الى تحصيل الحاصل والحذلقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف .

وقد أعطانا الشاعر التركي المستعرب — ابن سودون اليشبغاوي من أدباء القرن التاسع بمصر والشام — مثلاً للسليقة التركية لا نظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب والترك ولا شعراء الأمم الغربية ، لأن أولئك الشعراء يعطوننا المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التي تعدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده ولا بدع لنا أن نرسمه ونستوحي ملامحه من خلال الألفاظ ومعانيها .

ونكتفي هنـا بقصيدتين من شـعره الذي أراد به الاضحاك بمحاكاة أدعياء المعرفة الذين لا يزيدون في حكمتهم على تعريف المعروف .

واحدى القصيدتين على قافية الألف المقصورة وهي :

اذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الارض من فوقهـا السـما
وأن السما من تحتهـا الأرض لم تزل
وبينهما أشـيـاء ان ظهـرت تُرى
وأني سـأبدي بعض ما قـد علمتـه
لتعلم أني من ذوي العـلم والحجى
فمن ذاك أن النـاس من نسـل آدم
ومنهم أبو سودون أيضاً ، وان قضى
وأن أبى زوج لأمي ، وأنني
أنا ابنهـا والناس هم يعـرفون ذا
وكم عجب عنـدي بمصر وغـيرها
فمصر بها نيل على الطين قد جـرى
وفي نيلهـا من نام بالليل بله
وليست تبل الشمس من نام بالضـحى
بها الفجـر قبل الشمس يظهر دائماً
بهـا الظهر قبل العصر : فبلُ بلا مرا
وبالشـام أقـوام اذا ما رأيتهم
ترى ظهر كلٍ منهم وهـو من ورا
بها البـدر حال الغيم يخفي ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويسخن فيهـا الماء في الصيف دائماً
ويبرد فيهـا المـاء في زمن الشـتا

وفي الصين صيني اذا ما طرقته
يطن كصيني طرقت سوا سوا
بها يضحك الانسان أوقات فرحة
ويبكي زمان الحزن فيها اذا ابتلى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم
لأنهم تبدو بأوجههم لحى

والقصيدة الأخرى البائية التي يقول فيها :

عجبٌ عجب عجب عجبُ
بقر تمشي ولها ذنب
ولها في بزبزها لبن
يبدو للناس اذا حلبوا
لا تغضب يوماً ان شتمت
والناس اذا شتموا غضبوا
من أعجب ما في مصر يرى
الكرم يرى فيه رُطَب
أوسيم بها البرسيم كذا
في الجيزة قد زرع القصب
زهر الكتان مع البلَسا
ن هما لونان ولا كذب
كيهود في دير خُلطوا
بنصارى حركهم طرب
وقناطر أم الخمس بها
ماء في الحفرة ينسرب
والمركب مع ما قد وسقتْ
في البحر بطرف تنسحب

والخيمة قال الناس اذا
نصبت فالحبل لها طنب
البيض اذا جاءوا أكلوا
والسمر اذا عطشوا شربوا
الناقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب
الوز يبيض بثقبته
وينام عليه فينثقب
والوز الفقس بأرض بلقس
كذا في المقس له زغب
لا بد لهذا من سبب
حزز ، فزز ، ما السبب ؟

***

وستمر بنا فيما يلي ألوان من النوادر المنسوبة الى جحا يحسب بعضها من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع الفارق ، وبعضها من نوادر المحال والمغالطة . ويساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها الى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من التاريخ والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول انه تقريب لا نرجو أن نبلغ به مبلغ الجزم والتوكيد ، ولكننا لا نرى من أمانة البحث أن يهمل أو يصرف عنه النظر ، فلعله بعد كل ما يقال عن أحكامه « التقريبية » أصدق الموازين الميسرة لنا في هذا المبحث وما جرى مجراه من الروايات المشاعة بلا اسناد تبلغ مبلغ الجزم والتوكيد .

جحـــا ... ونــوادره

جحا ... غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا .

ذلك الشيء الثابت ـ قطعاً ـ انه لم يكن جحا واحداً ولا يمكن أن يكونه ، لأن النوادر التي تنسب الى جحا لا تصدر من شخص واحد ، ولا تزال دواعي اليقين باستحالة هذه النسبة واضحة في كل قرينة وكل رواية يجوز الاعتماد عليها في تحري الوقائع ومن تنسب اليه .

يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس فى صدر الاسلام ، وبعضها يتحدث عن أناس في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمورلنك أو مابعده من العصور بأجيال .

ويستحيل أن تصـدر عن شخص واحد لاختـلاف الشخصيات التي تصورها في مجموعها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها مايكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الغفلة ويتندر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيـه الحماقة بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويبدو في كلامه وتمثيله انه يتكلف ما يعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدّعون الحكمة والذكاء .

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة لتباعد البيئات التي تروى عنها سواء في الأمكنة أو العادات والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية .

بل ربما قيل عن جحا انه نصر الدين التركي وقيل عنه انه أبو الغصن العربي الفزاري ، وقيل عنه انه من النوكيّ الهاكمين كما يقال عنه انه من

أصحاب الحالات والكرامات من المتسترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة ..

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن « جحا » وحده كائناً ما كان ، لأنها تنسب — بعينها — الى المجانين من أمثال هبنقة وبهلول أو الى الاذكياء من أمثال أبي نواس وأبي العيناء.

ويزاد على هذه الاحالات جميعاً ان طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز أن يتفق عرضاً في نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لا يتفق في العشرات والمئات.

ونحن قد نقرأ عن جحا في كتاب واحد فنفهم انه شخص موجود أو قابل للوجود . لأنه متناسق الأخبار مطبوع في تفكيره وتعبيره على غرار واحد . ثم نقرأ عنه في كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطراً الى تسويغ نوادره المتناقضة باسنادها الى المختلقين والمنتحلين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير.

يقول الميداني صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فزارة كان يكنى أبا الغصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعاً فقال له : مالك يا أبا الغصن ؟ قال : اني قد دفنت بهذه الصحراء دراهم ولست اهتدي الى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغي أن تجعل عليها علامة . قال : قد فعلت . قال : ماذا ؟ قال : سحابة في السماء كانت تظللها ولست أرى العلامة ...

« ومن حمقه أيضاً أنه خرج من منزله يوماً بغلس فعثر في دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره الى بئر منزله فألقاه فيها . غير ان أباه أخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله وألقاه فى البئر . ثم ان أهل القتيل طافوا فى سكة الكوفة يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقال : في دارنا رجل مقتول ، فانظروا أهو صاحبكم ؟ فعدلوا الى منزله وأنزلوه في البئر ، فلما رأى الكبش ناداهم وقال : يا هؤلاء ! هل كان لصاحبكم قرن ؟ فضحكوا ومرّوا.

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لمن حوله :

أيكم يعرف جحا فيدعوه اليّ . فقال يقطين : أنا ... ودعاه ، فلما دخل لم يكن في المجلس غير أبي مسلم ويقطين ، فقال : يايقطين ! أيكما أبومسلم؟»

ثم يقول الميداني بعد ذلك : « وجحا اسم لا ينصرف لأنه معدول عن جاحٍ مثل عمر من عامر . يقال جُحا يجحو جحوا اذا رمى ، ويقال : حيّاً الله جحولك أي وجهك.»

***

وجحا هنا ، كما وصفه الميداني ، شخصية مفهومة متناسقة ، لعل الخبر الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه يفسر بالوراثة ما فيه من خلة الحماقة . لأن جحا لم يصنع شيئاً يزيد الشبهة في أمر القتيل بنقله من الدهليز الى البئر ، وأباه لم يصنع شيئاً يزيل الشبهة بوضع الكبش في مكانه ، وكان لكل منهما مندوحة عما صنع لولا الحماقة في الأب وفتاه.

أو لعل الخبر عن اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره بينهم علماً على البلاهة والفهاهة يسندون اليه ما شابه نوادره من الفكاهات الفارسية ، فليس في خبر جحا هنا غرابة بما نسب اليه أو نسب الى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعده الى توفيق أو تأويل .

ولكنك تقرأ عن جحا في غير كتاب الأمثال فلا ترى كتاباً واحداً يستغني عن شيء من التوفيق والتأويل ، لغرابة الأخبار التي ترامت عنه وتلقفها الرواة فحاروا كيف يضعونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار.

ومن الاطالة على غير طائل في غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما وصف به جحا في كتب الأدب العربي فان المحصل منه كله أنه تناقض لا يستقر على قرار ، ولكننا نجتزيء بما كتبه ابن الجوزي اذ يقول في أخبار الحمقى والمغفلين انه ــ أي جحا ــ « روي عنه مايدل على فطنة وذكاء ، الا أن الغالب عليه التغفيل ، وقد قيل ان بعض من كان يعاديه

وضع له حكايات . وعن مكي بن ابراهيم : رأيت جحا رجلاً كيّساً ظريفاً ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه ، وكان له جيران يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه.»

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون ان نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه . وغير ابن الجوزى أناس يحسبون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولا ينبغي أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يتعمد فيه اخفاء الأسرار الالهية بهذه المضحكات والخزعبلات ، وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثم شكوا في حقيقة اسمه كما شكوا في حقيقة مسماه .

وأما بعد ظهور جحا التركي ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب الى رجل واحد وهي مما يمكن أن ينسب الى عشرة متباعدين في الزمان والمكان والعقل والمزاج ، وبعض هـــذه الحكايات متأخر الى ما بعد اختراع الساعات التي تحمل في الجيب وبعضـــها متقدم الى أيام الصحابة والتابعين.

نوادر له ولغيره

ومما لا ريب فيه ــ قطعاً ــ أن رجلاً واحداً لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فاننا اذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل الا أن يأتي بتلك النـــوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه واثبات هذه الاحاديث المنقولة ، وهو ما لم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الاشارات فضلاً عن الكلمات.

فالعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لا عجب على الاطلاق في توارد هذه الحكايات وتلاقيها من أبعد المصادر ، ومهما يخطر على بالنا من غرابة ذلك فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات ــ وما هو أغرب منه ــ يتلاقى من أقاصي أوربا الى أقاصي

أفريقيا الى أقاصي القارة الاسيوية على امتدادها .

ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبي نواس وعن رابليه الفرنسي الذي تقدمت الاشارة اليه ، وفحواها أن تاجراً بخيلاً رأى طارقاً فقيراً يتبلغ بالخبز القَفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة، وحار الفقير في أمره حتى أنقذه حلّال المشكلات بحلّ من قبيل دعواه ، لأنه رن أمامه قطعاً من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمناً لرائحة شوائك !...

ومن الذي روى هذه النادرة عن أبي نواس ؟

لم يروها كتّاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الانجليزى انجرام Ingram في كتابه عن أبي نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية في أفريقية الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها في كتابنا عن أبي نواس . قال انجرام ما ترجمته بحرفه على وجه التقريب :

« ان تاجراً ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القَفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقي التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الي أمس اذ منحتنى رائحة معزتك فاصطنعت بها هنيئاً . فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها أنت اذن ولا ندري . وساقه الى هارون الرشيد — وقد كان شديد المحاباة للتجار — فحكم على المسكين بتغريمه اثنتي عشرة روبية يأخذها التاجر ثمناً لنكهة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكي لأنه لا يملك فلساً من هذه الغرامة ، فوجد أبا نواس في الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنّها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال : نعم . ومدّ يده الى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس

وصاح به : حسبك . لقد وصل اليك الثمن رنيناً برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حريّ أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، وترك الروبيات للمسكين ، وانصرف الى داره.»

هذه نادرة تروى في ســواحل افريقيــة الشرقية ، ويتحدثون فيهــا بالروبيات وهم يذكرون نقود بغداد ، وهذه النادرة بشيء من التصرف فيها تروى في قصص جحا وتروى في قصص رابليه .

ومن النوادر ما يتوارد في خرافات ايسوب وحكايات ألف ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت في أوائل ألف ليلة بالعبارة الآتية :

« اعلمي يابنتى انه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الأرياف وكان عنده في داره حمار وثور فأتى يوماً الثور الى مكان الحمار فوجده مكنوساً مرشوشاً وفي معلفه شعير مغــربل وهو راقد مستريح ، وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان في بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار هنيئاً لك ذلك : أنا تعبان وانت مستريح تأكل الشعير مغربلاً ويخدمونك وفي بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأنا دائماً للحرث والطحن . فقال له الحمار : اذا خرجت الى الغَوط ووضعوا على رقبتك (الناف) فارقد ولا تقم ولو ضربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوماً أو يومين أو ثلاثة فانك تستريح من التعب والجهد . وكان التاجر يسمع كلامهما فلما جاء السواق الى الثور يعلفه أكل منه شيئاً يسيراً فأصبح السواق يأخذ الثور الى الحرث فوجده ضعيفاً فقال له التاجر : خذ الحمار وحرّثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جواباً وندم أشد الندامة ، فلما كان ثاني يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه الى آخر النهار . فلم يرجع الحمار الا مسلوخ الرقبة شديد الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الحمار : اعلم

أني لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : ان لم يقم الثور من موضعه فأعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وأنا خائف عليـك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : في غد أسرح معهم . ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته الى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه .. وبرطع . فضحك التاجـر حتى استلقى على قفاه.»

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها في ألف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد في تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت في خرافات أيسوب منفردة ، على اختلاف في المغـزى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وحمار في حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : ان حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمح يوماً وتسقط في حفرة تستريح بعدها . فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيبت رجله اصابة بالغة من جراء سقطته ، وارسل صاحبه في طلب البيطـار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقاً من طحال معزة وقال انه دواء صالح لعلاج دائه . فذبحوا المعزة لمداواة الحمار .

« والمغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخاً لغيره جر البلاء على نفسه.»

وفي خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير ويتقارب فيهـا المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله ، ومنها مالم يرد في الخرافات القديمة كأنه أضيف اليها بعد عصر ايسوب أو بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها ماهو قديم منقول عن الحكمة الموضوعة على ألسـنة الحيوان ، وهي شائعة في الشرق من الصين والهند الى البلاد العربية على اتساعها وتباعد أقطارها .

ولا نرانا في حاجة الى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول

الكتب بين الأمم لتعليل هذا التوارد بين النوادر والحكايات في المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق الى الأندلس وفرنسا الى افريقية الشرقية . فان انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جداً من كل تأليف أو طباعة ، وقد كان الرحالون يطوفون البلاد من أقصى العالم المعمور الى أقصاه ولا سمّر لهم في الرحلة أشهى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الأقطار:

خذها شرودا في البلاد مقيمة   سمّراً لذي سمّر وزاد مسافر

فاذا سمعت القصة في بغداد لم يكن بعيداً عليها أن تسمع في بلاد الشمال من أوربا أو بلاد الجنوب من أفريقية مع قوافل الرحالين والسياح الذين يسمرون بها في سهراتهم ويتنافسون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن تسري هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامي السياحة ومطارح السفر، بل العجيب أن يكون للرحالين والسياح حديث غيرها في لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما اليه

ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبتّ في نسبة النوادر كلها أو بعضها الى صاحبها ، لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح للآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة الى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذي تؤديه ، ومنها مايمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثل البلاهة والحماقة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابي ، ولا يقع اللبس كثيراً بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار.

وسنختار فيما يلي عشرين نادرة في كل قسم من هذه الأقسام أو كل دور من هذه الأدوار ، ثم نتبعها ببعض القرائن التي تساعدنا على نسبتها الى أقوامها مع التحفظ والتوسع في هذه النسبة الجزافية ، وأما النسبة الى الآحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائنها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

٦٠ ــ نادرة

نوادر الذكاء والحكمة

١ ــ آل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لأنه وجد طنبـوره المسروق ، مع بائع في السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وأنكره ، فأرسل جحا في طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانة ، والآخر ماجن متبطل بغير عمل ..

وشهد الشاهدان بأنهما يعرفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعى ، وعلامته أن فيه كسراً بأعلاه ورباطاً بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة الشـد والحركة ..

وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال ان شهادة الخمار والماجن لا تقبل في الشريعة ..

قال جحا : « نعم . وأما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

٢ ــ من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا ان عملناه ؟ » ..

وأراد جحا أن يلقنه درساً ينفعه ، ويعلمه ان رضى الناس غاية لاتدرك . فركب حماره وأمر ابنه أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مرّ ببعض

النسوة فشتمنه وقلن له : « أيها الرجل ! أما في قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبي الضعيف يعدو وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار ، وأمر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بجماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق أحدهم كفاً بكف ، ولفتهم الى هذا الرجل الأحمق ، وهو يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الأبناء ، وتعلموا عقوق الآباء ... أيها الرجل ! تمشي وأنت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك ان تعلمه الأدب والحياء » ؟

قال جحا لولده : « أسمعت ؟ تعال اذن نركب الحمار معاً » ..

وما هي الا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من اصدقاء الحيوان صاحوا بهما : « أما تتقيان الله في هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معاً ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم مايزيد على وزن الحمار » ؟

قال جحا لولده : « الآن نمشي معاً ونرسل الحمار أمامنا ، لنأمن سوء القالة من النساء والشيوخ وأصدقاء الحيوان.»

وما هي الا لحظة أخرى حتى مر بهما طائفة من «أولاد البلد» الخبثاء ، فجعلوا يعبثون بهما ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار الا أن يركبكما أو تحملاه وتريحاه من وعثاء الطريق » !

فمال جحا الى شجرة ، وأخذ منها فرعاً متيناً وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على كتف ولده . فاذا البلد كله وراء هذا الركب العجيب ، واذا بالشرطي يفض هذا الزحام ليسوقهما الى البيمارستان ..

قال جحا لابنه في طريقهما مع الشرطي : « هذه يابني عاقبة من يستمع الى القال والقيل ، ولا يعمل عملاً الا ابتغى به مرضاة الناس » !

٣ ـ احصاء المنافقين والرقعاء

كان جحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم أو من الغرباء عنهم أنهم كلهم منافقون رُقعاء .

ولامه هذا وراجعه ذاك ، فعمد الى اقناع اللائمين والمناقضين بأسلوبه في الاقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لأول مناقض له في تشهيره بأهل البلد : « تعال معي واحسب » !

وعند منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذي تحمله على ظهرك يا جحا » ؟

قال جحا لصاحبه : « هذا واحد : أتراه لا يعرف الباب الطويل العريض الذي يسأل عنه » ؟

٤ ـ العصا تحمل الارجل

حمل جحا أوزة مشوية الى الأمير ، وغلبه الجوع ورائحة الشواء في الطريق ، فأكل احدى رجليها .

ثم وضعها بين يدي الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت ؟

قال : « لم تذهب الى مكان ، وانما الأوز كله برجل واحدة في هذا البلد » ، ثم تقدم بالأمير الى نافذة القصر وأشار الى سرب من الأوز قائم على قدم واحدة كعادته في وقت الراحة ، فدعا الأمير بجندي من حرسه وأمره أن يشد على سرب الأوز بعصاه ، وماكاد يفعل حتى أسرع الأوز يعدو هنا وهناك على قدميه .

قال الأمير : « أرأيت ؟ ان أوز هذا البلد أيضاً خلق بقدمين ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جحا : « مهلاً أيها الأمير ... لو شد أحد على انسان بهذه العصا لجرى على أربع » !

٥ ـ تماطل الله وتستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة ، واستكثرت على الزيتون الثمن الذي طلبه ، وقالت له : « اذا أردت أن تبيعني بالثمن الذي أخبرتك به مؤجلاً ، فأنت تعرف زوجي وهو فلان ابن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف جودة الصنف وحقه من الثمن ، فاعتذرت بأنها صائمة لأنها مرضت من سنة وأفطرت في شهر رمضان !

قال جحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ولا تأجيل .. أتراك تماطلين الله سنة ولا تماطليننى الى يوم القيامة » ؟

٦ ـ تيمور فى الآخرة

وسأله تيمورلنك الطاغية المشهور : « أين ترى يكون مثواي في الآخرة ياخوجة نصر الدين ؟ »

فقال جحا ولم يتردد : « واين ترضى أن تكون ، ان لم تكن مع جنكيزخان والاسكندر وفرعون والنمروذ » ؟

٧ ـ ثمن طاغية

وسأله تيمورلنك ، وقد أخذه معه الى الحمام ، وخلع ملابسه الا مئزراً يديره على وسطه : « بكم تشتريني الآن ، لو عرضت عليك في السوق ياخوجة نصر الدين » ؟

قال : « بخمسين ديناراً »

قال تيمور : « ويحك ! ان ثمن هذا المئزر خمسون ديناراً »

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته » !

٨ ـ الحساب المهضوم

وأراد تيمور أن يصادر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » فاتهمه باختلاس أموال الديوان ، وأبرأ الحاكم ذمته بالحساب المكتوب على دفاتر الديوان الغلاظ ... فأخذها تيمور من يده ومزقها وامره بابتلاعها ، ثم أحال حكم المدينة الى الخوجة نصر الدين .

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد فى طيها رقائق من الخبز مكتوباً عليها الحساب بالحلوى .

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذي يحتمله جوفي ياسيدى ، لأنني شيخ فانٍ ولست فتى ضليعاً كحاكمك القديم.»

٩ ــ أيهما احب اليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما أن تحرجاه ، فسألتاه : أيهما أحب اليه.

قال : « أنتما معاً حبيبتان الى قلبي » !

قالتا : « لا ، انك لا تستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة ، وامامك هـذه البركة نخيرك في اغراق احدانا بها . فمن منا تلقي بها في الماء الآن ؟ » ..

وحار في أمره هنيهة ، ثم التفت الى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر أنك تعلمت السباحة قديماً يا عزيزتي » !

١٠ ــ المكان الامين في الجنازة

وسئل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير أمامها ؟ »

قال : « لا تكن في النعش ، وسر حيث تشاء.»

١١ ــ القبلة الامينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابح اذا نزل في الماء » ؟

فقال : « يستقبل المكان الذي عليه ملابسه.»

١٢ ــ الفضول

ولقيه بعض معارفه في الطريق فقال له : « اني رأيت الساعة رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر.»

قال جحا : « وماذا يعنيني ؟ »

قال صاحبه : « إنهم يحملونه الى بيتك،»
قال : « وماذا يعنيك » ؟

١٣ ـ التقوى المهلكة

وسكن في دار ، فشكا الى صاحبها انه يسمع قرقعة في سقفها
قال صاحب الدار : « لا تخف . إنه يسبح الله »
قال : « وهذا الذي أخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا » !

١٤ ـ حدود الابوة

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ »
قال : « يجوز » !
قيل : « وبعد بلوغ الثمانين » ؟
قال : « يجوز »
قيل : « وبعد بلوغ المائة » ؟
قال : « نعم .. اذا كان له جار في العشرين » !

١٥ ـ العامة القارئة

وعرض عليه رجل كتاباً بالفارسية ليقرأه له فتعلل برداءة الخط ، ورد له الكتاب ..
قال صاحب الكتاب محنقاً : « وعلام اذن تضع هذه العمامة على راسك كأنها الرحى ؟ »
فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانباً ، وقال له : « دونك العمامة فاسألها ، فانها صاحبة العلم الذي تبغيه » !

١٦ ـ تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفاه بعرض الطريق يريد أن يسخر منه ،

فأخذ جحا بتلابيبه الى القاضي ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أصدقائه الذين يمازحونه بمثل هذا المزاح الثقيل .

وكان الرجل العابث من معارف القاضي فأحب أن ينجيه من العقاب ، وحكم لجحا بأن يصفعه كما صفعه او يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء أو التعويض .

وطمع جحا في الدراهم فسأل القاضي المدعى عليه : « أمعك الدراهم »؟

وفطن صاحبنا لغرض القاضي فقال : « كلا ، ولكنني احضرها بعد قليل من البيت.»

واذن له القاضي بالانصراف لاحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ، ثم صفعه صفعة عنيفة ، وقال له وهو ينصرف : « اذا عاد اليك الرجل بالدراهم ، فخذها حوالة مني اليك » !

١٧ ـ دعوى بدليلها

وادعى الولاية ، فسأله السامعون عن كرامته ، فقال : « أتريدون مني كرامة أعظم من علمي بما فى قلوبكم جميعاً » ؟

قالوا : « وما في قلوبنا » ؟

قال : « كلكم تقولون في قلوبكم انني كذاب » !

١٨ ـ من يلد يمت

واستعار حلة كبيرة من جاره ، ثم أعادها اليه وفيها حلة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه » ؟ قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » فتقبلها جاره ولم ينكر عليه .

ثم استعارها مرة أخرى ولم يردها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية في حياتك ، انها ماتت عندنا في النفاس ... رحمها الله »

قال صاحب الحلة متعجباً : « أيموت النحاس ؟ »

قال جحا : « من يلد يمت ، وقد يموت في النفاس.»

١٩ ـ ثمن الضرورة

وعطش في طريقه ، وهو بمنقطع من الماء في الصحراء ، فمر به اعرابي يحمل قربة ، عرض عليه جحا أن يبيعها اياه فلم يقبل باقل من خمسة دراهم ، فاشتراها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستضاف الاعرابي فأعطاه من الطعام ما أشبعه وأظمأه ، فسأله شربة من القربة ... فلم يقبل جحا بأقل من خمسة دراهم .. وباع الشربة بثمن القربة !

٢٠ ـ ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فأقسم ليبيعنه ان وجده بدينار واحد .

ثم وجده وندم على حلفه ، ولم يشأ أن يحنث في قسمه ، فاحتال عليه ليبر باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار في السوق وقد ربط الى عنقه حذاء قديماً ، فجعل ينادى عليه : « الحمار بدينار والحذاء بعشرة دنانير ، ولا يباعان على انفراد » !

٢١ ـ الكرام قليل

أمره الوالى أن يعد مجانين البلد ، فقال : « بل اعد لك العقلاء . ومن عداهم كثيرون لا يحصرون.»

٢٢ ـ يقضي على القاضي

جاء الشرطي برجلين الى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضي يحدثه في بعض شئونه ، فعرض الشرطي قضية الرجلين ، وقال انه وجد في الطريق بين بيتيهما أقذاراً ممنوعة وادعى كل منهما أن جاره مطالب بازالتها ، لأنه هو الذي وضعها في عرض الطريق .

وأراد القاضي أن يعبث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه ، لانه كان يدعي العلم ويتصدى للافتاء ، فأحال عليه القضية ، وسأله أن يقضي فيها بالحق بين الرجلين .

فقبل جحا مقترح القاضي ، وسأل الشرطي : « هل كانت الأقذار أقرب الى دار هذا أو دار ذاك » ؟

قال الشرطي : « انها كانت في الوسط بينهما »

قال جحا : « انما يزيلها اذن مولانا القاضي ، لأنها في الطريق العام ، ومولانا القاضي هو المسئول عن المدينة » !

نوادر الحماقة والبلاهة

١ ـ على قدر الوضوء

توضأ جحا ، ولم يكفه الماء لاتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض ..

فسألوه : « مابالك تقف على رجل واحدة ؟ »

قال : « الأخرى غير متوضئة » !

٢ ـ أنا مكرر

رأى رجلاً في الطريق لا يعرفه ، فتبسط معه في الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين ..

فعجب الرجل وسأله : « ألك بي معرفة فترفع الكلفة هـكذا بيني وبينك ؟ » ..

قال : « بل حسبتك أنا .. لأن ثيابك كثيابي ومشيتك كمشيتي،ولكنك لست أنا كما علمت الآن » !

٣ ـ ترويج زوجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرآه دلّال في السوق ، تكفّل له ببيعها اذا أسلمه اياها وأعطاه الجُعل المعلوم ، وقبل جحا ، فأخذ الدلال ينادي على البقرة ، ويذكر منافعها ومحاسنها ، ومنها أنها حبلى في ستة أشهر ..

ثم جاء الخواطب الى داره يخطبون بنته ويتطلعون الى محاسـنها ،

فتذكر الصفة التي روجت سوق البقرة ، وقال للخواطب :
« هي كما ترون وزيادة .. انها حبلى في شهرها السادس!»

٤ ـ يريح كما يراح

ورأوه يركب حماراً ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « ألا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو أمامك ولا ترهق نفسك بحمله وأنت راكب ؟ »

قال : « عدل من الله ، أراضي الحمار من حمل نفسي بأن أريحه من حمل خرجي » !

٥ ـ اكبر خوخة

وكان في منديله فاكهة ، فسأله بعضهم : « ماهذا الذي في منديلك يا جحا ؟ »

قال : « لا أقول لكم ، ولكني أعطيكم أكبر خوخة اذا عرفتموه.»

قال السائل : « إنه خوخ » !

فانطلق قائلاً : « أيّ ملعون انبأكم بأمره وهو مصرور؟» !

٦ ـ احجية محلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « ان عرفت مافي منديلي أعطيتك واحدة منه تكفي لعمل عجّة مليحة.»

قال : « صفه لي ولا تذكر اسمه »

قال صاحبه : « إنّه أبيض وفي وسطه صفار.»

قال جحا : « الآن عرفته .. إنه لفت حشوتموه جزراً » !

٧ ـ الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنه : « ضاع الحمار والحمد لله »

قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ »

قال : « نعم ، لو انني كنت اركبه لضعت معه ولم أجد نفسي.»

٨ ـ اربعون يوما من رمضان

وكان من عادته اذا صام يوماً في رمضان أن يلقي بحصاة في جرة ، ورأته ابنته فألقت في الجرة ملء كفيها من الحصى ، وهي تظن أنها تساعده.

وسأله الجيران يوماً : « كم بقي من رمضان ؟ »

قال : « أما مابقي فلا أعرفه ، ولكني عليم بما مضى من أيامه.»

ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة.

قال بينه وبين نفسه : « لو أنبأتهم بهذا العدد لسخروا مني ، ولكني أنزل به الى أربعين.»

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوماً على التقريب.»

فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « إنه شهر طويل على الصائمين ، فماذا تصنعون لو أنبأتكم بالعدد الصحيح ؟ »

٩ ـ الشمس والقمر

وسألوه : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ »

فلم يتمهل واجابهم بيقين : « انه القمر ولا مراء.»

فسألوه : « ولم ؟ »

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغني عنها الناس ، واما القمر فلا يطلع الا في الظلام على حين الحاجة اليه.»

١٠ ـ البحث في النور

ورأوه يبحث في أرض لا شيء فيها ، فسألوه : « عمّ تبحث ؟ »

قال : « خاتم سقط مني »

قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض آثر للخواتم ؟ »

قال : « بل سقط في الزقاق الذي هناك.»
قالوا : « ومابالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ »
قال : « وأي جدوى للبحث في الظلام ؟ »

١١ ـ حمار ممسوخ

اشترى حماراً ، واقتاده بزمام طويل ، فتغفله لصّان ، ذهب أحدهما بالحمار ، وربط الآخر نفسه في مكانه.

والتفت جحا فرأى انساناً في مكان الحمار .

فاستعاذ بالله ، وسأله « أين الحمار ؟ »

قال : « أنا الحمار ، أعادني الله إنساناً ببركتك كما كنت بعد أن مسخت حماراً لدعاء والدتي عليّ »

فبارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة الى اغضابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائها .

ثم عاد الى السوق بعد برهة ليشتري حماراً غير ذلك الانسان الممسوخ فرأى الحمار بعينه في يد الدلال ، فمال على أذنه وهمس فيها قائلاً : « لن تنفعك بركتي بعد مسختين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان » !

١٢ ـ نصف بنصف وتتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذي يملكه ليشتري بثمنه النصف الآخر ، وتخلص له الدار بغير شريك !

١٣ ـ دابة على رمح

ونام في الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة النقود على رأسه لكيلا ينالها أحد .

فرآه لص وعرف غفلته ، فأخذ النقود ووضع في موضعها روث دابة.

وتيقظ جحا ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود

ولكنه عجب للدابة التى استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع ..

١٤ ـ مكافأة معقولة

وحمل الى تيمور رمانات باكورة ظهرت في غير أوانها ، فرضي عنه تيمور وأرضاه ..

ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهديها اليه ، فقال له بعض جيرانه ان اللفت لا يصلح لاهداء الملوك ، فاذهب اليه بنخبة من التين فهو ألطف وأحلى .

واستكبر تيمور أن يهدى اليه التين وهو يملأ الاسواق ، وأحب أن يكف جحا عن طمعه ، فأمر الجند أن يقذفوه بالتين واحدة بعد واحدة .

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأنفه وهو يضحك ويدعو للجار الذي أسدى اليه النصيحة الصادقة .

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند أن يمسكوا عن ضربه ، لينسأله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « انه سر عظيم ، لو كان اللفت في موضع هذا التين ، لتهشّم رأسي وانفقأت عيناي » !

١٥ ـ بروج نامية

وسألوه : « ماطالع نجمك ؟ »

قال : « ولدت والشمس في برج التيس »

قالوا : « لا يوجد في السماء برج يسمى برج التيس ، ولكنك تعني برج الجدي » ..

قال : « أفمن مولدي الى اليوم لا يصبح الجدي تيساً ؟ »

١٦ ـ كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يناولها اياها من يمينه .

قال : « يا حمقاء ! وكيف أعرف يميني من شمالي في هذا الظلام ؟ »

١٧ ـ أدب مع التلاميذ

وركب بغلته مستدبراً رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا لا تعتدل في ركوبك يا مولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس الآدميين ؟ »

١٨ ـ يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوماً وهو يغنى ويجري ، فسألوه : « مابالك تغني وتجري ؟ »
قال : « أحب أن أسمع صوتي من بعيد ! »

١٩ ـ لماذا ينتشرون ؟

سألوه : « لماذا ينتشر الناس في جوانب الأرض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين وذات اليسار كل صباح ؟ »

فتأمل قليلاً ثم قال : « لو ذهبوا الى ناحية واحدة ، لمالت بهم الأرض وانكفأت بهم في هاوية ليس لها قرار ! ».

٢٠ ـ لماذا لاتأكله ؟

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن ، وهو يشتهيه ، ولا يقدر عليه لخلو يده ، فاتجه الى الفران وسأله : « ألك كل هذه الرغفان ؟ » قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ »

نوادر التحامق والتباله

وهذه نوادر منسوبة الى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا نقتصر في اختيارها على النوادر التي يصطنع فيها الحماقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التي لا تحسب بطبيعتها من الحكمة ولا تحسب من

الحماقة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليها هذه مرة وتلك مرة أخـرى : وكلها قد نسبت الى جحا كما نسبت بموضوعها أو بمغـزاها الى ذوي السمعة الفكاهية من أمثاله ٠

١ ـ احمق واحمقان

رآه الطحان يأخذ من قفف الناس ويضع في قفته ، فصاح به : « ماهذا يا جحا ؟ »

قال جحا : « لا تؤاخذني فانني رجل أحمق »

قال الطحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفتك ووضعت في قفف الناس » !

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صـنعت كمـا تقول لكنت أحمقين » !

٢ ـ ما لا يغتفر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وامرأتاك تقطّع احداهما الأخرى ؟ »

ولم يشأ أن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكاً : « أقالت احداهما للاخرى شيئاً يتعلق بالعمر ؟ »

قال : « كلا »

قال : « اذن لا داعي للوساطة ، فانها مشكلة سليمة » !

٣ ـ مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفي ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما استقبله بالحفـاوة والتحية ..

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأرنب وقال له انه جاره القريب ٠

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البـلدة جيران كثيرة

يزعمون جميعاً أنهم جيران الرجل في داره أو حقله أو دار أحد من أهله .

فأجلسهم جميعاً على السماط وجاءهم بطست كبير فيه ماء غال ، وأومأ اليهم قائلاً : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق الأرنب ، ياجيران جيران صاحب الأرنب المشئوم » !

٤ ـ بلبل ولا كالبلابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان وفاجأه وهو على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت ياهذا ؟ »

قال جحا : « أنا بلبل أتنقل على الأغصان.»

قال صاحب البستان : « أسمعنا اذن من غنائك أيها البلبل العجيب »

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : « ماهذا بتغريد بلابل.»

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل انني بلبل عجيب ؟ »

٥ ـ مصيبة اكبر من مصيبة

ونظر تيمور الى وجهه في المرآة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور فانقبض لمنظره القبيح ، ولمح وزيره انقباضه فاخذ يواسيه على عادة الوزراء بما يسري عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة في القوة وبسطة في الثروة والسلطان ، وانما يأسى على جمال الوجوه النساء وأشباه النساء من الرجال.»

فانبسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضياً عما قاله الوزير ، ولكنه التفت الى الخوجة نصر الدين فرآه يبكي ويستخرط في البكاء ..

قال له : ماخطبك ياخوجة نصر الدين ؟ أنا صاحب المصيبة تسليت ، وأنت تأبى أن تتسلى ؟ »

قال جحا : « معذرة يامولاي ، ان مصيبتي أكبر من مصيبتك أضعافاً مضاعفة . أنت نظرت الى وجهك مرة فانقبضت . فماذا أصنع أنا الذي أنظر اليك بالليل والنهار مرات ؟ »

٦ ـ نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الاثاث حتى دخل وراء اللص الى داره.

ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت ياهذا ؟ »

قال : « أنا صاحب هذه الدار التي نقلتنا اليها ! »

٧ ـ كلهم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « انك محق في شكواك أيها الصديق.»

وجاءه الصديق الثاني في اليوم التالي فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق.»

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يالك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شكواه !؟ »

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضاً فيما تقولين ؟ »

٨ ـ تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبنى داراً تتسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجعه النجار دهشاً ، ولم يفهم مايعنيه .

قال جحا : « أما علمت ياهذا أن المرأة اذا دخلت مكاناً جعلت عاليه سافله ؟ اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » !

٩ ـ خروف على عيبه

وأرسله أبوه يشترى له رأس خروف مشوياً بأقل من ثمنه ، فأكل فى الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومخه ، وذهب به الى أبيه جمجمة نخرة.

فجعل أبوه يقلبها ويسأل : « أين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنوناً بغير عقل.»

فيسأله : « وأين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى.»

ويسأله : « وأين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان أقرع.»

ويسأله : « أين لسانه » ؟

فيقول : « كان أخرس اعجم.»

قال أبوه : « فاذهب ردد الى صاحبه.»

قال : « انما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل عيب.»

١٠ ـ العقاب قبل الذنب

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرها أن تكسرها ، وأنذرها لئن كسرتها ليصفعنها هكذا ، وأردف الانذار على الاثر بصفعة قوية أبكتها ..

فنظر اليه عابر طريق ولامه على ضرب البنت الصغيرة في غير جريرة ، وقال له : « اتضربها قبل أن تكسرها » ؟

قال : « يا أحمق . انما اضربها لتعرف ألم العقاب فتحذره ، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ »

١١ ـ العائل الاكبر

سأله الأمير : « كم عيالك » ؟

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد اليه على الأثر وهو يقول : « نسيت واحداً أيها الأمير أنفق من مالي عليه كما أنفق على هؤلاء. »

قال الأمير : « من يكون ياترى » ؟

قال : « أنا أكبر عيالى أيها الأمير. »

١٢ ـ ياكلون بالضرب

وذهب الى قونية ، فاعترضه في طريقه دكان حلوى تعرض فيه أصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية فأهوى عليها يأكل منها بلا استئذان ، وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى جحا وراح يثني عليه ويثني على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « يالكم يا أهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

١٣ ـ ماذا يفعل الحذاء ؟

ولبس حذاء جديداً ، فنظر اليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « أتستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتي بشيء من ثمرها » ؟

قال : « نعم ، فكم جعلتم » ؟

فأعطوه ماتيسر لهم وانتظروا أن يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاؤه تحت ابطه.

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » !

قال : « اذا ألقيت اليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ .. أما أنا فلعلي أجد لي طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود اليكم » ..

١٤ ـ لولاك ياكمّي

وذهب الى وليمة بثياب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد اليهم بثيابه المدخرة ، وعليه حلة من الحلل التي يخلعها عليه الأمراء ، فأكرموه وتقدموه الى مكان المائدة ، فغمس كمه في الصحاف واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له كأنه يناجيه : « كلْ ، كلْ ياكمي ، فلولاك ماوصلت الى هذا الطعام » !

١٥ ـ ماذ اضاعت ؟

وقيل له : ان امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام الى داره يبحث فيها ..

قالوا : « ماذا تصنع ياجحا ؟ » ..

قال : « انكم تقولون انها أضاعت شـيئاً ، ولن يكون ذلك الشيء عقلها ، فانني لا أعرف لها عقلا تضيعه » !

١٦ ـ بالدور

وقيل له : ان امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها.

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحاً لوصلت الى دارنا » ..

١٧ ـ اصدق من الحمار

ورجاه بعض جيرانه أن يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه الى الغيط.

ثم نهق الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلاً : « أليس هذا حمارك ينهق في الدار ، وأنت تزعم أنه ذهب الى الغَوط » ؟

قال : « سبحان الله ، تكذبني وتصدق الحمار » ؟

١٨ ـ يصلح لكل شيء

وسأل امرأته ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لماذا يصلح هذا » ؟

قالت : « يصلح لكل شيء » !
قال : « فاطبخي عليه اذن كل شيء » !

١٩ ــ قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « أترضون قسمة الله أوْ قسمة عبيده » ؟

قالوا : « بل قسمة الله. »

فأعطى أحدهم درهمين ، وأعطى الثاني دينارين ، وأعطى الثالث لحافاً ، وأعطى الرابع سريراً عليه حشية ، واستبقى سائر التركة بين يديه

قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ »

قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله »

٢٠ ــ منوم موصوف

وطلبت منه امرأته أن يعود اليها في طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلهما الذي يؤرقهما بالبكاء والصياح .

فعاد وليس معه غير الكتاب الذي يقرأه .

قالت : « لعلك نسيت الدواء » ؟ ...

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم في الكبار فنأموا جميعاً ، فجربيه أنت في الصغار »

موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا أقسام النوادر التي تنسب الى جحا ، وقد تنسب الى غيره ، ومنها ما ينبيء عن حكمة ظاهرة وما ينبيء عن بلاهة ظاهرة ، وما ينبيء عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة.

وتندر بينها النادرة التي لم تنسب الى مصادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمّقين ، وبعضها يروى عن اناس في الغرب الحديث كالنادرة التي تروى عن الشجار بين المرأتين ، فان الأولى تروى عن نابليون وطبيبه والثانية تروى عن جولدسمث الكاتب الانجليزي المشهور الذي قيل فيه انه أحمق الناس الا حين يتناول القلم فهو اذن من أحكم الناس ..

قيل ان نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولاً بأمر ولاية العهد : « هل يولد للرجل في الستين ؟ وهل يولد له فى السبعين ، وهل يولد له فى الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم في الندرة ، وعن ابن الثمانين انه يولد له اذا كان له جار في العشرين ..

وقيل ان امرأة جولدسميث وأخته تشاجرتا وهو غائب عن المنزل ، فأدركه أحد جيرانه وأنبأه بأمر هذه المشاجرة ، فسأله : « هل قالت احداهما للاخرى انت شوهاء » قال الجار : « كلا » . قال : اذن هي مشاجرة مأمونة »

وقد سبقت الاشارة الى نوادر متشابهة بين الفكاهة المصرية والفكاهة في المجر وأوربة الوسطى ، ولا يصعب تعليل ذلك بتوارد الخواطر في

الجواب البسيط على سؤال واحد أو سؤالين ، وقد يعلل الكثير منه باطلاع الغربيين على النوادر التي ترجمت لهم من العـربية في القرون الوسطى وقد يكون المتشابه من تلك النوادر اضافة جديدة في الكتب المطبوعة لم تتداولها ألسنة الناس قبل ذلك.

الا أن النوادر التي لا شك في مصدرها الشرقي كثيرة بين النوادر المنسوبة الى جحا وأمثاله ، وهي على الجملة نوادر الزوجتين والقضـاة الدينيين والضيافات التقليدية ونوادر الصيام والصلاة والفتاوى وما هو من قبيلها ..

فهذه لا شك في مصدرها الشرقي من تخوم الصين الى آسيا الصغرى ووادي النيل ، فأين هو معيار النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الأقوام والأمصار والأقطار ؟

في النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم ويقين . لأن النادرة قد تقع في القرن الثاني أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذي نقلت اليه ، وما لم تكن مكتوبة في مرجع معروف التـاريخ فلا سبيل الى الجزم بنسبتها الى زمن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الآخر « تقريبي » كالمعيار التاريخي لاينتهي بنا الى الحسم ولا يسلم من اللبس والاشتباه ، وذلك معيار الخصـائص القومية التي نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها وبين النوادر التي توائمها ولا توائم غيرها ..

وقد أسلفنا ان طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وان طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وان طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها الى الوهم والقياس مع الفارق الواحد أو الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل ان العبقرية التي أخرجت لنا القول بتسخير الجسد والأعضاء لحالات الروح تخرج لنا مع الفكاهة ـــ والمحاولة الدبلوماسية ـــ قصة الاوزة التي يخلق لها الخوف رجلين والرجل الذي يخلق له الخوف

أربعاً اذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا ؟
جائز أو راجح ، وهذا غاية ماهناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذى مسخته دعوة أمه حماراً ثم عاد الى الآدمية ببركة الشيخ .
وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة التي يقال لزوجها انها تدور في البيـــوت ، فيأخذ بالواقع ــ المفرط ــ ويقول : لو صح ذلك لدخلت الى بيتنا .

***

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطنع التعمية ويعلن أنه يعطي أكبر « خوخة » في المنديل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذي يضربونه لأنه يأكل الحلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط والعصا ..
كذلك يعقل ان القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع نصف الدار ليشتري النصف الآخر وتخلص له الدار بنصفيها . فما كل شراء يجمع للشاري بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء.
والحماقة التي أدخلت في روع صاحبها انالسحابة علامة صالحة للحفرة التي تحفر تحتها ــ هي بعينها التي ترى على الرمح روثة فلا تفهم منها الا أن الدابة صعدت على الرمح . ثم لايبقى عليها الا البحث في طريق الصعود ..
هذه معايير تقريبية لا نأخذ بها ولا نهملها ، لأن اهمالها اهمال لدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والاحكام .
وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفة من أشهر النوادر بين العامة والخاصة في البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علَماً على جحا دون غيره من جمهرة الناس التي تتناقل النوادر والاحاجي من فم الى فم ولا ترجع الى الكتب والأوراق ، فليس من الجائز أن تسقطها من كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب اليه من النوادر والحماقات ، ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه التوادر الساذجة في تأليفها وموضع

الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة أرباع المجموعة التي بلغت قرابة ستمائة ، وعتها المطبعة التركية كلها الا القليل الذي تناثر من صـــدر الاسلام الى أيام الدولة العباسية بين كتب الأدب والفكاهة ؛ وفيها من الأسلوب الأدبي والذوق الفني ماليس في معظم النوادر الشائعة ؛ فان هذه النوادر الشائعة أقرب الى النفاية التي تتناقلها العجائز لتسلية الأطفال ومن هم في مثل مداركهم من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية التى يسميها الغربيون بالفولكلور أوقع من موضعها بين كتب الأدب والفكاهة الفنية ..

جحا في الأدب

جحا في الأدب ، أو على الأصح النوادر الجحوية في الادب لأن هذه النوادر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم في الأدب العربي رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبنقة الاحمق وباقل العيي وأشعب الطفيلي وبنان الموسوس وأبو العبر المتحذلق ومزبد المديني والحموي الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماقة أو التطفيل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الخلة الجحوية الا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على بعد مابين هذه المشتقات من المعاني والألوان .

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم في كتب الأدب أرفع في طبقة « الذوق الفني » من جحا في جملة نوادره وأخبـاره . فليس فيهم من يسـف بأضاحيكه الى الصبيانية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الـكثير من نوادر جحا التي وصلت الينا مضافاً اليها نوادر المجموعة التركية ، وهي محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الاسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين — كالأرمن — ونسبوه الى جحاهم المسمى عندهم باسم « ارتين » .

وعلة هذه النقاوة فيما أثبته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا البارد الغث من النوادر ، ولم يثبتوا الا مافيه معنى وله طعم في مذاق الأديب والفنان ، فلا تجد — مثلاً — في تلك النوادر ماتحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهـلاء ، وما فيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق في عرف الذكى اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل في عرف الصغار والاغرار .

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزبد أو الحموي لكانت طرازاً من هذا الفن لايعدله طراز في لغة من اللغات ، ولكانت باباً من أبواب الدراسات الصادقة للفكاهة الفنية والعوارض النفسية التي يعتمد عليها من يجدّ في البحث عن شواهد التحليل .

فمن كلام الحمدوني حين لاموه على التحامق : « ان حماقة تعولني خير من عقل أعوله.»

ومن أضاحيك المزبد ، انه هم بتطليق امرأته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله مالك ذنب غيرها.»

ومن أضاحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة ، فصامه الى الظهر وأفطر ، وقال : « حسبي من الثواب ستة أشهر ، نحسب منها شهر رمضان.»

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكانت كما أسلفنا ذخيرة لاتعدلها ذخيرة في آداب العالم ، ولكنها لاتجتمع بطبيعتها ولا مناص من اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الأكبر من عامة الرواة ، وأضافوا اليها مايخترعونه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو مايستدركون به الفوات والنسيان .

والكتب التي جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب الى أيام الدولة العباسية ، ثم يعرض لها الاسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من جراء الشيوع والذيوع أو من جراء الهزال والاضمحلال في دور المهانة والجمود .

وأشهر هذه الكتب نثر الدرر للآبي والأغاني لأبي الفرج الاصفهاني والمحاضرات لأبي القاسم الراغب الاصفهاني ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي والعقد الفريد لابن عبد ربه وفوات الوفيات لابن شاكر وذيل زهر الآداب للحصري والمستطرف للابشيهي وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، وحلبة الكميت للنواجي . ثم يلي هذه الطبقة كتاب الفاشوش في حكم

قره قوش لابن مماتي وكتاب مضحك العبوس لابن سودون المجنون ، ويستطرد الاسفاف بعد ذلك الى القرن الرابع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادرالمنسوبة الى جحا منقولة عن اخلاط الالسن في كل أمة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية .

الادب الجحوى بعدالنهضة الشرقية

وقد ازدهر الأدب الجحوى بعد النهضة الشرقية الحديثة ، فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتى ، يقتبس بعضـها من نوادره للاغراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هذه « الشخصية » لأغراض النقد الاجتماعي على طريقة جحا في التحامق والحكمة التي تجري على ألسنة المجانين ، ويعنى بعضـها بالاحصـاء التـاريخى والاسـتقصاء في تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار في الأدب الجحوى بعد عصر النهضة الحديثة الى العناية باحياء الآثار السلفية كما يرجع الى شيوع النقـد الاجتماعى بأسلوب الجد والفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناساً من الأجانب المقيمين في الشرق ـ كما نبهت الشرقيين ـ الى استكشاف طبائعه وملامحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان البادية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التي تدور حول « شخصية جحا » السـاذجة ونوادره التي يتداولها الشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا الى الفرنسـية باسم « كتـاب جحا السـاذج » هما البرت عداه والبرت جوسيبوفيشى Albert Ades and A. Josipovici الذي كان من موظفي القصر الملكي وممن حضروا بعض الدروس الاسلامية في الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية واطلاع على نوادر جحا في مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عداه فقد ولد بالقاهرة ـ سنة ١٨٩٣ ـ وتعلم في مدارسـها وحضر بعض الدراسات الأزهرية ، وأمكنه أن يفهم النوادر في لهجتها الشـعبية أو

لهجتها المعربة الشبيهة بالشعبية .

وقدم الكتاب المترجم الى قراء الفرنسية الأستاذ اوكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها في أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها ان المؤلفين لايشرحان شيئاً لأن الحياة لاتشرح نفسها وما كان « جحا » الا فلذة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش الى تفسير ، لأن النوادر لاتبحث لنا عن غير المألوف أو عن الخوارق والغرائب وانما تعطينا مألوفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، واذا بدا فيها أثر من الغرابة فانما ترجع هذه الغرابة الى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثالها في كل جيل .

وماكاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم الى اللغات الأوربية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزيدونها كما أقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بفكاهته ووقائع الحياة الممثلة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالانجليزية ظهرت باسم جحا الأحمق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط » .

وآخر ماظهر من الكتب الأوربية عن جحا كتاب مغامرات بخارى الذي ألفه الكاتب الروسي ليونيد سولفييف Leonide Soloviev (سنة ١٩٣٨) وترجمه الى الانجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina في هذه السنة ، واتخذ المؤلف من شخصية جحا في هذا الكتاب داعية جوالاً يضطرب في البلاد الاسيوية هرباً من ظلم الحكام ، وكراهة للمقام ، ويمضي هنا وهناك ليشهر بالنظم الحكومية التي ترهق الناس بالضرائب وتلتمس لها أسباباً من الهباء لاتعفي منها المقيم ولا المترجل بين الأرض والسماء ، ومثال هذه المعاذير التي تنتحل لتحصيل الضرائب أن المكاسين استوقفوا جحا على باب مدينة ليسدد الضرائب عمن ينوي أن يزورهم فيها ، فلما قال للمكاسين انه لايقصدهم للزيارة بل للعمل والتجارة طالبوه بالضريبة ضعفين : احداهما للعمل المربح والأخرى للزيارة «الضمنية» ... لأن من يتجر مع قوم يزورهم بغير مراء .

ونخال أن القراء الغربيين أقبلوا على نوادر جحا لأنها وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونها ويتناقلون حكاياتها الصحيحة أو الموضوعة ، وربما كانت نوادر جحا نفســه قد تسربت الى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع على الكتب العربية في أصــولها أو ترجمتها ، ولا يبعد أن يكون كثير من هذه النوادر قد انتقل من المغرب الى أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون في لغتهم الممتزجة بالعــربية عن شخصية كشخصية جحا تسمى عنــدهم جهان ، وهو تصــحيف يسير كتصحيف كثير من الأسماء العربية التي يتسمى بها أبناء تلك الجزيرة . أما اسم « جوكا » المشــهور باللغة الايطالية فلا نخاله من قبيــل هذا التصحيف كما خطر لبعضهم ، لأن مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك شائعة في اللغات الغربية اللاتينية والسكسونية ، ومنها كلمة «الجوكندا» لصورة مونا ليزا الخالدة بمعنى « المبتسمة » من عمل ليوناردو دافنشي الفنان الكبير ..

وقد أشرنا فيما تقدم الى شخصيات في الغرب تشبه شخصية « جحا » في جانب الحكمة تارة وفي جانب الحماقة تارة أخرى ، ولا ننسى في هذه العجالة أبقى هذه الشخصيات لأنها باقية الى يومنا هذا عنوانا لصحيفة سيارة باسم الـ « البنش » Punch المختزل من اسم Punchinello من بقايا التمثيل الصامت في العصور الوسطى أو « القره‌قوز » المعروف عندنا بصندوق الدمى والألاعيب .

والتناقض كثير في رد هذه الكلمة الى أصلها القديم ، فمن الشائع في الأسانيد الشعبية الايطالية ان الاسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى بتشيو دانيلو Puccio d'aniello كان معروفاً في القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه علماً على صناعة التهريج .

ولا سند لهذه الرواية غير الاشاعة والمشابهة في اللفظ مع الاختزال والتصحيف ، والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بنشــيوس بيلات Pontius Pilate أو بيلاطس الذي حدثت في عهد ولايته محاكمة

السيد المسيح . فقد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والاهانة في المسرحية الدينية التي كانت تمثل محاكمة السـيد المسيح وتعرض أعداءه في صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرهقوز بالسواد كما يسمى باللغة التركية منظوراً فيه الى هذه المسرحية « السوداء » أو مأخوذاً من الستار الاسود الذي يحجب الدمى والألاعيب ، وهكذا تتنقل الشخصيات والمناظر بين الشـعوب ثم تنعزل في كل أمة بخصائصها بعد نسيان وسائل الانتقال .

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق الى اليوم يصغي الناس الى فكاهاته متفرعة متجددة ، متطورة ، كما نقول بمصطلحات زماننا وقلما يعنيهم أن يتتبعوها الى جذرها القديم .

***

ومن أطوار الشعوب في تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية أن نهضة الشرق نبهت الأوربيين الى تراث الشرقيين القديم وان عناية الأوربيين نبهت اليه أناساً من الشرقيين الذين يكتبون باللغات الأوربية ، فوضع الأستاذ عسكر نحاس باللغة الفرنسية كتاباً سماه « تأملات ابن جحا » يحكي فيه الابن أباه بالحكمة المازحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله قوله عن المرأة « انها خلقت في الرجل الانانية لتحقيق مطالبهـا » وان « امرأة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن امرأتين معا تبحثان عن فريسة .» وان « الرجل الشرير في عين المرأة الخائنة هو السـمكة التي ترفض الطعم » و « ان المرأة تعذّب رجلها عقاباً له على أنها شيء لا غنى عنه لديه.»

وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة ، ولانظنهم جميعـاً قالوا ــ بعد ــ كلمتهم الأخيرة باللغة العربية ، أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فانهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل .

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية ــ وهي أقل النواحي ثبوتاً وأهمية في هذا المبحث ــ أننا نستطيع أن نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأنه شخصية تاريخية لاغرابة في وجودها ولا داعية للشك في امكان وقوع النوادر المنسوبة اليها ، فان الذين يشبهون أبا الغصن هذا في غفلته وسهواته يوجــدون في كل بيئة ، وفي كل زمن ، وإن تنوعت المناسبات والأحوال التي تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة .

ويلحق بأبي الغصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهاره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نبزاً أو تشبيها أو تغليباً أو تفيهقاً بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار السلف اذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من ذلك اذا رويت عن سكان البلد في ساعتهم الحاضرة ، ويعمل الوضع و « القفش » عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النوادر الجحوية ماتصح نسبته الى شخصية قديمة أو حديثة وما تصح نسبته الى أحد غير وُضاعه ومخترعيه من الرواة والملفقين .

ونحن في عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصــحيحة والمخترعة وشهدنا تطورها من مبدأها الى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وكان « الفضل » في ذلك للصحافة الاسبوعية المضحكة التي كانت تقوم في أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المخترعة ، ويعلم الكتاب والقراء والمستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف ، وأنها براعة في صناعة « القفش » يتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة في صدر الدولة الاسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

رأينا الأديب « ابراهيم الدباغ » يأكل في مأدبة فلم نلحظ عليه شيئاً

من النهم الذي اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحباً له فقال إنها أكلة واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة ، وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالادعياء من محترفي الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الاغنياء ، فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والوقيعة وملأوا الصحف الاسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة في اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها المستعار الى يومنا هذا ، وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه « دباغ » وهو لايعرف أصلاً لهذه التسمية ..

وقد حكينا مارأيناه من الشيخ الدباغ وما سمعناه من صديقه لصاحب احدى الصحف الاسبوعية التي أولعت « بالقفش » له والتلفيق عليه . فقال : « لاتنخدع به فتدعوه الى طعام ، فانما يكف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق اليه ليدحض كلامنا عنه ويغرر بالحاضرين فيقعون في الشرك ، ويندمون حيث لاينفع الندم .»

فلم ندر — ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهروه بها — أيّ القولين نصدق وأيّ القفشات يعتمد على الواقع وأيها يستمد من الفكاهة والخيال ..

واشتهر رجل آخر في تلك الآونة بالمبالغة في الادعاء — أي بالفشر كما يقولون في اللهجة البلدية — وكان حقاً يدّعي ويبالغ في دعواه ، وكان ظريفاً يحسن التخلص من المأزق اذا امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان الى هذا وذاك على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية في ذلك الحين ، فامتلأت هذه الصحف بدعاويه وبالدعاوى المقيسة عليها مع التوسع والاغراب ، وأصبح اسمه كذلك علماً على « الفشر » يكاد يلغي هذه الكلمة لولا أنها متأصلة في الأقوال والأقاويل

فلا غرابة في نشأة النوادر الجحوية سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها الا القليل .

وكل ماجاء في الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا غرابة في نشأته ، ولا غرابة فيه من كل وجه الا في التناقض بين الغفلة والتغافل في أخبار الرجل الواحد ، ولاسيما الاخبار التي تتحقق صفات صـــاحبها ويثبت انه من المجانين المسلوبين الذين لايحسنون تدبير « التغافل » ولا تجيء منهم الحكمة الا فلتة غير مقصودة في القليل من الأحايين.

الخوجة نصر الدين التركي

أما جحا التركي المسمى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب اليه يملأ مئات الصفحات ، وبين أيدينا كتاب بالتركية مطبوع في الاستانة بالحرف الدقيق (سنة ١٣٢٨ هجرية) يقع في مائتي صفحة وخمس وخمسين ولا يستوعب كل مانسب الى جحا أو الى الخوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو نوادر الغفلة والبلاهة.

والأمر الذي لاشك فيه أن كثيراً من هذه النوادر وضعت بالتركية ولم تنقل عن العربية ، وأنها ترجع الى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته على الأقل في بلاد أخرى.

ويدعونا الى الجزم بذلك أن النوادر تشتمل على جناس يوجد في الألفاظ التركية ولا يوجد في ألفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل في نادرة المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم في بعض الكلمات ، والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايب » بمعنى حبل في نادرة يحذر فيها الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الافراط في تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت « رحمة انيور » من عند الله.

ويدعونا الى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر أنها تذكر المدن والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة الى هذه الأيام ..

ويرجح لدينا أن نصر الدين شـــخصية تركية غير منقولة عن الأمم

الأخرى أنه نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل الاسلام ، وحيث يعهد في آحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بمظاهر التخليط أحياناً بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس ايماناً بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذي ينالون به ماطلبوه من الحاكم اذا أضحكوه واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور .

***

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه في مقبرة « آق شهر » بعد وفاته بزمن طويل ، يذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها الى حب التقية والاحتيال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذي يؤدي الى مرماه ويعفيه من عقباه .

والشك الأكبر انما يعرض لهذه السيرة من أطباق النوادر الكثيرة فيها على اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفي سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفي قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رآه وحضر مجالسه الا اذا كانت وفاته حوالي سنة (١٤٠٥ م) التى توفي فيها تيمور ..

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات الا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين في تعيين السنة التي توفى فيها الخوجة نصر الدين ، والثاني أن تيمورلنك لقي شيخاً آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتداخلت الروايات وعلقت البقية الباقية منها بالاسم المشهور .

وأياً كان صواب النسبة في بعض النوادر التي تحتمل الخلاف فهناك

جملة من النوادر لا اختلاف في وضعها بعد عصر تيمورلنك وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين ، وهي النوادر التي وردت فيها الاشارة الى المخترعات الحديثة كالبندقية وساعة الجيب ، أو كالنوادر التي تكذبها وقائع التاريخ العثماني وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص.

***

ومن الواجب أن نسلم ــ بداءة ــ بوضع العدد الأكبر من النوادر التركية أو نقلها من رواة الامم الاخرى ، لان حصولها كلهـا من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يروى له نظير في السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التي تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن يأتي بما فيها من النقائص العقلية والخلقية ، فضلاً عن نقائص الجغرافية والتاريخ ..

فوضع العدد الأكبر من النوادر أمر مفروغ منه لا يجوز ان يحتج به المحتج على بطلانها واختلاقها من أصولها ، ولعل هذه النوادر الموضوعة أصح في الدلالة على أزمنتها وبيئاتها من وقائع السجلات والأرقام.

قيل ان بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شـعرة أو لمحة عين . ولا شك في هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الهول يتحول فجأة الى الضحك بطاريء من طواريء التغيير والتبديل التي تتعاقب في أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات.

***

ولا شك في هذه الحقيقة ــ أيضاً ــ من الوجهة التاريخية اذا رجعنا الى عصر تيمورلنك وأشـباهه في تواريخ المشرق والمغرب ، فليس أحفـل بالأضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائد والأهوال.

وظاهرة أخرى من الظواهر النـاطقة في النوادر الموضوعة تنبئنا عن زمانها الذي فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات .

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثاني عشر للميلاد) هبطت المعرفة

من ذروة الكرامة وأصبح العارف الأريب من يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبه بالجهــلاء وأصحاب الجــدود من ضعاف العقول ، وشاع القول « بحرفة الأدب » مغنية عن القول ببؤس العالم الأديب ..

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التى يجمع بطلهــا بين البؤس والبلاغة والبراعة في الحيلة ، وفيه تواتر النظم في شكوى الزمان مقرونة بشكوى الأدب والعجب من قسمة الأرزاق ، وهذه هي الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل « الانشائية » أو الفنية ، وأما الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التي تعد بالمئات ولا تظهر فيها براعة اللبيب الاريب الا في الاحتيال على أكلة أو في الاحتيال على دفع المحتالين الطامعين في قوته الهزيل .

***

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الارزاق يسأل فيها جحا من ندبوه للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكّموه في توزيع الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذاك وفاوت بينهم أكبر المفاوتة في الاقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشيع بين العامة من رواة « الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد .

على أن النوادر « الطعامية » تنمّ على وجه خاص عن سذاجة في الحيلة ترجع نسبتها الى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأســون بذوي المعرفة والتقى ولا تسعفهم القدرة على الاختراع ، فغاية جهدهم هذا الذي ابتدعوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الاسوة فيه بنسبته الى العارفين ، وجاءت هذه النوادر الطعامية مجــاوبة للمقامات الانشــائية وللقصائد المنظومة في شكوى الزمان والعجب من قسمة الارزاق ، ولم يعرف هذا كله في عصر من عصور الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد

إدبار الدولة العباسية ، واجتياح تيمورلنك للعالم الشرقي من تخوم الصين الى شواطيء بلاد الروم .

***

ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحك ، أنه أعار اسمه عامداً وغير عامد لباب من الدراسة النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسوراً لنا بغيره ، ولن ببخسه شيئاً من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ .

فهرس كتاب
جحا الضاحك المضحك

الموضوع **الصفحة**

طبع على مطابع
دار الكتاب اللبناني
ص .ب . ٣١٧٦
بيروت ـ لبنان
٢٥١٢٩٤ ـ ٢٥٨٣٠٤

دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول
هاتف: ٨١١٥٠١٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ١٩٦١١١٠ ٣٥١٤٣٣
ص.ب: ١١/٨٣٣٠ أو ١٣٥٣٥٢ - برقياً: داكليان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN
FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON